
دار السلام للنشر تقدم
معركة القنال
أو
حرب العصابات
سعد زغلول فؤاد

دار السلام للنشر

تقدم

معركة القنال

(أو حرب العصابات)

دفاع عن السلام

سعد زغلول فؤاد

الإهداء

إلى محقق أهداف معركة القنال ...

إلى بطل تأميم القنال ...

إلى حامل لواء الحرية والسلام فى الشرق الأوسط

إلى أول مصرى يحكم مصر من أجل مصر .

إلى **جمال عبد الناصر** أمل الشعوب العربية وباعث القومية العربية .

المؤلف

أغسطس ١٩٥٦

مقدمة

دار السلام

دار السلام للنشر مؤسسة وطنية تقوم على أكتاف شبان وطنيون لهم ماضيهم المشرف فى الكفاح الوطنى ضد الاستعمار والرجعية منذ عام ١٩٤٦ .

دار السلام لا يسندها ممول خطير ، ولا رأسمال كبير ، وإنما تسندها عزائم الشباب ، واحتياج بلادنا إلى ثقافة شريفة تعمل مخلصة من أجل التحرر والديمقراطية والسلام . قامت هذه الدار بعرقنا ودمنا وقروش قليلة ساهم بها مكافحون شرفاء لإقامة صرح يحمى ثقافتنا الوطنية ، ويعمل من أجل الشعب ، ومن أجل المثل والقيم الرفيعة بعد أن تسلطت علينا أبواق الدعاية الأمريكية ومن قبلها الثقافة الاستعمارية الإنجليزية طوال الحقبة الماضية ، فشوهت تاريخنا ، وأفسدت ثقافتنا ، ومرغت القيم الشريفة فى التراب وأبرزت قيم أخرى ومعايير أخرى للثقافة التى تخدم الاستعمار والرجعية . وكان نتيجة التوجيه الاستعمارى لثقافتنا أن أصبحت أغلب المؤسسات الثقافية فى بلادنا تخدم الرأسمالية العالمية والاستعمار وتشجع الدعوة إلى الحروب وقيام التكتلات العسكرية فى شرقنا العربى .

واليوم ومصر تجتاز فترة دقيقة وتمر بمرحلة حاسمة تفرض فيها

نفسها على التاريخ كافة حرة تقودها حكومة وطنية حررت بلادها من الاستعمار والإقطاع وتحكم الرأسمالية العالمية وأسواقها ... واليوم ومصر تقود أفريقيا إلى السلام ونبذ الحروب بعد مؤتمرى باندونج وبريونى وتحطم الأحلاف الاستعمارية فى هذه المنطقة من العالم ... اليوم وسياسة مصر فى الميدان الدولى تلقى التأييد والإعجاب من الرأى العام العالمى فى كل مكان .

اليوم بعد أن طهرت مصر جيشها من بعثات الاستعمار العسكرية وسلحته على أحدث نظام من المعسكر الشرقى ليحمى بلادنا من مؤامرات الاستعمار والاحتكارية العالمية وصنيعتها إسرائيل .

اليوم وبعد أن اعترفت مصر بالصين الشعبية وفتحت الأسواق لتجارة القطن بعد أن تآمرت عليه دول الغرب ثلاث سنين بقصد إفقارنا وإذلالنا .

اليوم ومصر تقف وراء حركات التحرير الوطنية فى العراق والأردن وشمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية مهما غضبت الدول الكبيرة وأتباعها .

اليوم بعد أن أممت مصر قناة السويس وانتزعتها من أيدى الرأسمالية العالمية التى امتصت دمائنا وحرمتنا من خيرات جهدنا ثمانون عاماً .

اليوم ومصر تبنى نفسها . وتقيم المشاريع الاقتصادية والصناعية الضخمة فى كل مكان . مصر القوية العظيمة التى بعثت من جديد

لتقف على رأس الهرم الأفريقى حاملة لواء التحرر والسلام فى حاجة إلى ثقافة وطنية شريفة لتسير جنباً إلى جنب بجوار هـذه السياسة القومية لتحميها وتعمقها فى النفوس.. ثقافة تكشف مؤامرات الاستعمار العالمى وخططه لتعويق كفاحنا وهدم بنائنا وإفقارنا وإذلالنا لـكى نعود سـوقاً لبضائعه ومزرعة تزرع القطن لمصانعه فى مانشيستر وليفربول .

فكان لا بد من قيام مؤسسات وطنية تحمل مشعل الثقافة الحرة مقدرة شرف الـكلمة المـكتوبة وتأثيرها فى الشعوب . ثقافة تحمى تراثنا القومى وتساهم فى تحديد الخطوط الرئيسية لبناء بلادنا فى هـذه المرحلة الدقيقة الحاسمة التى يغير فيها التاريخ .

من أجل هذا قامت دار السلام لتؤدى دورها فى هذا السبيل بجهدها المتواضع من أجل الحرية والديمقراطية والسلام وتضع نفسها فى الموكب الزاحف موكب النور موكب الثقافة الشريفة الحرة إلى جوار زميلاتها دار الفكر ودار النديم ودار السلام بالإسكندرية . فقد كان لهذه الشموع التى أضاءت فى سماء الفـكر فى بلادنا أثر كبير فى الشهور الماضية لتنوير الرأى العـام بالحقائق ... الحقائق التى نحن فى شديد الحاجة إليها اليوم بعد أن طمسها الاستعمار وثقافته وقت طويل .

ودار السلام تعاهد جماهير القراء فى شرقنا العربى المتعطشة للثقافة الشريفة الحرة الواعية ، أن تظل حاملة المشعل من أجل هذه المبادىء والأهداف الجليلة التى تقدمت .

ونحن نقدم أول إنتاجنا كتاب « معركة القنال ١٩٥١ » تسجيلا لما حدث فى تلك المعركة من مواقف وطنية لشعبنا العظيم ومن ثورات وخيانات قام بها الاستعمار والرجعية عن طريق أجهزته الكثيرة المندسة بين الصفوف لتعويق كفاحنا الوطنى والقضاء على حركتنا الفتية فى ذلك الوقت .

إن هذا الكتاب درس للذين يحاربون الاستعمار فى أى مكان من العالم ليفهم طبيعة مؤامراته الدنيئة .

وبلادنا أشد ما تكون حاجة إليه اليوم وهى مقدمة على كفاح طويل ضد الاستعمار والرأسمالية العالمية بعد تأميم قناة السويس لنعرف تكتيك الاستعمار واستراتيجيته ولنتلافى أسباب فشلنا فى الماضى . . .

أما كاتب الكتاب فهو الأديب الصحفى المكافح سعد زغلول فؤاد صاحب كتاب الظلم فى مصر وكتاب سجن مصر ، وصاحب الجولات الموفقة فى عالم الصحافة ومكتشف العسكرى الأسود فى إحدى هذه الجولات والمكافح الثورى الذى قاد الجامعة فى مظاهراتها الوطنية عام ١٩٤٦ والذى نظم الجمعيات السرية عام ٤٧ التى أفزعت الإنجليز وأخرجتهم من القاهرة إلى القنال بعد أن كانت قنابل الأحرار تطاردهم فى كل مكان .

وهو المكافح الذى خرج من السجن بعد ثلاث سنوات فى قضية

سينا مترو ليحمل السلاح فى القنال مع زملاء أحرار بعد أن ترك القلم فى جريدة الجمهور المصرى وسيعلم القارىء دوره فى صفحات الكتاب القادمة .

وهو الذى اعتقلته حكومة الهلالى مع بقية الفدائيين حتى أفرجت عنه حكومة الثورة حيث حمل السلاح مرة أخرى مع الفدائيين الذين أطلقهم جمال عبد الناصر ليرغموا الإنجليز على الجلاء بعد المعاهدة المعروفة . وأظن أننا نعلم جميعاً قصة الجاويش البريطانى ريجدن الذى خطف فى صيف ٥٣ واهتزت من أجله الإمبراطورية البريطانية وصدرت تصريحات القاده العسكريين باستعمال العنف فى الإسماعيلية يسندها تصريحات هانكى ومؤامراته فى القاهرة . واحتار الناس فى قصة ريجدن وبعد ثلاث سنوات وفى صيف ١٩٥٦ عرف العالم أن سعد زغلول هو مختطف ريجدن رداً على اختطاف الإنجليز لبعض المصريين وإلقائهم للكلاب . وسعد الآن ينظم زملائه استعداداً لخوض المعركة مستفيداً بتجاربه الماضية التى يهديها إلى كل مكافح فى كل مكان من أرض المعمورة نكب بالاستعمار ليعرف الطريق للمقاومة وهو بذلك يقدم خدمة جليلة للمعركة القائمة فى أركان الأرض من أجل الحرية والسلام ؟

ابراهيم يونس

مقدمة

يلفظ الاستعمار هذه الأيام أنفاسه الأخيرة . . ، فأمام قوى الشعوب ووعيها التحررى . . ، وانتشار الحركات الوطنية وتوالى ضرباتها فى جميع ميادين الاستعمار ، وانتصار حركات السلام وخنق مؤامرات الاستعمار لشن حرب جديدة . . ، وإزاء الأزمات الطاحنة التى تعانيها الدول الاستعمارية داخل بلادها . . ، وتبلور التناقض بين هذه الدول الاستعمارية واحتدام الصراع فيما بينها جرياً وراء الانفراد بمناطق النفوذ . . ، الأمر الذى أدى إلى تهتك الاستعمار وضعف جبهته . . ، أمام كل هذه العوامل ، يحتضر الاستعمار اليوم ويلفظ أنفاسه الأخيرة . . ، وهو فى مرحلته تلك يحاول أن يتشبث بالحياة ، فيجمع من قواته المضعضعة ويلقى بها دفعة واحدة فى معركة حياة أو موت . . وقد يؤجل قليلا ساعة موته . . يؤجلها بالمؤامرة وعوامل الغدر والخيانة . . ، إلا أن يقظة الشعوب وتكتلها فى محاربته سريعاً ما تجهز عليه . . ، وتتخلص البشرية بذلك من أخطر الأوبئة التى نكبت بها . . ، فتسير قدماً فى طريق التطور والتقدم . . ، نحو عالم سعيد لمواطنين أحرار . . عالم بلا حروب . . ولا استعمار فيه أو استغلال .

المعركة إذن قائمة على قدم وساق بين الشعوب والاستعمار . . ،

وقد توالت الهزائم على الاستعمار وأحرزت الشعوب إنتصاراً إثر انتصار . . ، فمنذ عشر سنوات فقط ، كان حوالى ٦٠ ٪ من سكان العالم يعيشون فى قبضة الإحتكاريين الاستعماريين والرأسماليين ، يعانون آلام الجوع والعرى والإملاق والعوز . . ، وتهدر حرياتهم وتبتلع السجون والمعتقلات أحرارهم . . ، ويسفك رصاص الجيوش المحتلة دماء المكافحين المطالبين بحقهم فى الحياة . . ، كان ٦٠ ٪ من سكان العالم يعيشون فى ظل الإرهاب والإضطهاد والإستغلال والفقر . . ، فى ظل الإستعمار . . . واليوم ، تمكن ١٢٠٠ مليون نسمة أن يتحرروا من الاستعمار ويتمتعوا باستقلالهم ويمارسوا حرياتهم . . ، وذلك خلال العشر سنوات الأخيرة . . ، فالشعوب تنتصر وهى تعدو قفزاً نحو التحرر .

واحتضار الاستعمار يبدو واضحاً فى التطورات الأخيرة التى حدثت منذ اجتماع مندوبو الدول الأسيوية الإفريقية فى باندونج (أبريل ١٩٥٥) حيث اجتمع ممثلو ٢٩ دولة للتعبير عن وجهة نظرهم فى المشاكل العالمية وعلى رأسها مشاكل بلادهم وقضايا شعوبهم . . ، وأصدروا عدة قرارات تقوم حكوماتهم بتنفيذها . . ، وكان على رأس هذه القرارات العمل على تصفية الإستعمار وتجنب الحرب وتوطيد السلام العالمى . . وكذا اتباع سياسة التحرر والاستقلال وكفالة حقوق الإنسان داخل بلادهم .

هذا وقد ساعد من التعجيل بانهيار الاستعمار ، تضافر إرادة

الشعوب على منع نشوب حرب جديدة وإحباط المشروعات العسكرية العدوانية التى تقوم بها الدول الإستعمارية ، وكذا مقاومة كل تحركات التحضير للحرب واصطناع القوى الاستعمارية للتوتر الدولى، تمهيداً لحرب جديدة ، وتمشياً مع المشروعات العدوانية للسلام العالمى . . ، فقد بدت إرادة الشعوب وعزمها على توطيد دعائم السلام وكشف مؤامرات الاستعمار فيما قامت به القوى التقدمية للشعوب ، من شحذ قوى الجماهير وتعبئتها للأغراض السلمية ومقاومة المشروعات الحربية.. وذلك كما حدث بمؤتمرات الشعوب فى برلين ، ڤيينا ، بوخارست ، وارسو . وقد اشتركت مصر فى جميع المؤتمرات السابقة ، وأخذت تعمل من جانبها على تحقيق أهدافها وتنفيذ قراراتها . . . ومصر ظلت نهباً للاستعمار البريطانى طوال الأربعة وسبعين سنة الماضية . . ، وفى السنوات الأخيرة ، سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، دخل شريك جديد فى استغلال موارد الشعب المصرى ، دخلت الولايات المتحدة الأمريكية ببضعة من رءوس أموالها الفائضة لاستغلالها بأرض مصر تمهيداً لفرض نفوذها الاقتصادى والسياسى . . ، وبذلك أصبحت القوى الاستعمارية تركز نشاطها بالشرق الأوسط فى القاهرة . . ، ذلك النشاط الذى لم يخل من تناقض وتنافس وتصارع على انفراد أى من القوتين الأنجلو أمريكية باستغلالنا .

ولكن الشعب المصرى ، أخذ يقاوم هـــذه القوى العدوانية ويواصل كفاحه الطويل من أجل التحرر ، وقد كان نتيجة لتخلص

الشعب من الملك السابق زعيم الإقطاعيين ومن رجاله وعملائه ، وكذا زوال طاقم السياسيين من خدام الاحتكار ورأس المال . . من حلفاء الاستعمار . . ، كان لاختفاء هذا الطاقم من على المسرح السياسى المصرى . . ، أن خفت القوى المعادية للوطنيين فى الجبهة الداخلية ، فأمكن للقوى الوطنية أن تحقق انتصارات رائعة فى الشهور الأخيرة ، وتوجه ضربات قاصمة للقوى الاستعمارية فى الشرق الأوسط ، فقد أخذت مصر فى الانفصال عن الاقتصاد الغربى الاستعمارى . . ، فى التخلص من الاستغلال والسيطرة الاقتصادية والسياسية التى كانت تضرب على مصر طوال السبعين سنة الماضية . . ، وبعد أن كانت الدول الاستعمارية تتحكم فى الأسواق المصرية وتدير الاقتصاد المصرى لصالح خزائن الاحتكارات الأنجلو أمريكية ، حطمت مصر هذه السيطرة ، وفتحت أسواقها لدول الكتلة الشرقية وارتفعت بالتالى أسعار القطن ، كما استوردت ما يلزمها من حاجيات إنتاجية واستهلاكية بأسعار منخفضة ، وكذا عقدت عدة اتفاقات تجارية مع الدول الاشتراكية ، فجر ذلك الرخاء والانتعاش والرواج . . أو أن أبواب مصر قد فتحت على مصاريعها ليدخل إليها الرواج والرخاء وهو بسبيله أن يعم البلاد . سيما بعد أن قامت الحكومة بتأميم شركة القنال واسترداد هذا الموفق الحيوى المصرى من أيدى غاصبيه الأجانب .

ولم تقف مصر عند حد تحطيم السيطرة الاقتصادية للدول الاستعمارية ، بل قاومت السيطرة السياسية ، فقد وقفت صراحة ضد

الأحلاف العسكرية وأبت دعوة الغرب للارتباط بها ، وحين أمكن للاستعمار أن ينسج حزام الموت المسمى بحلف بغداد ، قاومت مصر هذا الحلف العدوانى الرجعى الاستعمارى . . وشنت عليه حملة نارية على نطاق الجماهير العربية . . التى حالت بقوتها الجارفة بين حكوماتها وبين الانضمام إليه . . ، وبذلك أحبطت المؤامرة الاستعمارية التى كانت تهدف إلى جر مصر والبلدان العربية إلى ذلك الحلف وأمثاله . وحين سئل رئيس حكومة مصر عما دعاه إلى معارضة حلف بغداد البريطانى ، أجاب قائلا : « لقد عارضنا حلف بغداد وحاربناه ، لأن المستعمرين أرادوا أن يجعلوه قاعدة يثبون منها على الأردن وسوريا ومصر والسودان » . (حديث الرئيس المصرى لجريدة الجمهورية فى ٢ يونيه ١٩٥٦) .

لقد ساهمت مصر فى توطيد السلام العالمى ، بمقاومتها حلف تركيا العراق البريطانى . وكسرت من شوكة الاستعمار وزعزعت من كيانه بالشرق الأوسط .

إن مصر اليوم تتخذ فى المجال الدولى موقف الحياد الإيجابى ، وذلك بالتعايش السلمى مع جميع الدول المحبة للسلام ومقاومة الأحلاف العسكرية ذات الأغراض الاستعمارية والأهداف الحربية المعادية للشعوب ، وبتبادل العلاقات التجارية والثقافية والسياسية مع دول الكتلة الشرقية . تحقيقاً لمبدأ التعايش السلمى الذى تسير عليه دول مؤتمر باندونج ، مصر وهى تسلك هذه السياسة الاستقلالية السلامية ،

إنما تخرج نهائياً من قبضة النفوذ الأجنبي الاستعمارى ، وهى بذلك قد حطمت ذلك السياج العتيق الذى كان يعزلها عن نصف سكان العالم ، وحصر علاقاتها فى فلك الدول الاستعمارية المعادية لمصر والمدمرة لثروتها وحريتها والمعرقلة لتطورها . . ، وكان فى حيثيات اعتراف مصر بحكومة الصين الشعبية ، ما وضح طبيعة الدول الاشتراكية والاستعمارية من مصر ، إذ جاء بها « تصدر لنا الصين الشعبية السلام ، بينما تصدر الدول الاستعمارية الحرب » ، وكان إقدام مصر على الاعتراف بحكومة الصين الشعبية تأكيداً لاستقلالها وضربة أصابت المعسكر الاستعمارى بغير قليل من الدوار .

ولأول مرة منذ أن نكبت مصر بالاحتلال البريطانى ، لأول مرة منذ محنة الاحتلال الأجنبي عام ١٨٨٢ تتمكن مصر من تسليح جيشها لخلق قوة وطنية تؤمن سلامة الوطن ضد مؤامرات الغزو الاستعمارى ، ذلك أن القوى الاستعمارية أخذت تدفع إسرائيل إلى الاعتداء على مصر وجاراتها العربية ، وذلك كى تساعد على الضغط الاستعمارى على مصر ، فتستجيب لمشروعات التدمير والحرب . . ، وحين حاولت مصر التسلح من الدول الغربية التى كانت تعلن أنها حليفة مصر . . ، رفضت هذه الدول الاستعمارية « الحليفة » مدها بأى سلاح . . ، فى الوقت الذى كانت تنهال فيه إمداداتها على إسرائيل . . ! والمؤامرة التى لا تزال تنفذ خططها وتنسج خيوطها ، هى أن تُسلح إسرائيل وتدفع للاشتباك مع مصر ، فتهب القوى الاستعمارية لغزو

الأرض المصرية بدعوى حماية السلام فى الشرق الأوسط . . ، وتفرض بالتالى إرادتها وكل مشروعاتها العدوانيـة للشعب المصرى وشعوب العالم . فهناك إذن تهديد بخطر غزو على مصر . . . وقد خرجت من النفوذ الاستعمارى . ولم تجد الحكومة المصرية مناصاً من طلب أسلحة من دول الكتلة الشرقية ، فرحبت تلك على الفور بتسليح مصر . . ، فكانت صفقة الأسلحة التشكية التى دوت صفعتها على وجه الاستعمار الأنجلو أمريكى فأطار صوابه وأخذ يصرخ ويولول محتجاً بأن ذلك يخل بالتوازن فى الشرق الأوسط . . ، تسليح مصر جريمة فى حق السلام بالشرق الأوسط ، وتسليح إسرائيل المستمر بأسلحة حلف الأطلنطى ودفعها للاعتداء على حدود مصر بين الحين والحين ليست جريمة يا ساسة الغرب يا أعداء السلام . . والمحمومين بالاستعمار . . المنهارين من الاحتضار . . !

وقد سارت مصر فى سياستها الإستقلالية فسلحت جيشها من دول الكتلة الاشتراكية لصد أى غزو استعمارى تعمد إليه دول الغرب وعميلتهم إسرائيل .. كما عقدت المحالفات العسكرية الدفاعية مع سوريا ، الأردن ، المملكة السعودية ، لوقف هستريا المغامرات الاستعمارية الحربية بالشرق الأوسط ولتدعيم سياسة السلام العالمى .. هذا وقد أيد مصر فى سياستها السلامية والاستقلالية الشعوب الحرة والقوى التقدمية العالمية . . ، ولا تزال المعركة دائرة الرحى حامية الوطيس بين مصر والقوى الاستعمارية فالسياسـة الاستقلالية والخطوات

الوطنية التي يسير عليها الرئيس عبد الناصر تؤرق الاستعمار . إنها أشواك في صدره ، لأنها سياسة التخلص من براثنه تخلصاً أبدياً كاملا إنها سياسة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي في المجال الدولي ، والاقتصاد الوطني والبناء السلمي في الداخل ، ولهذا تتآمر اليوم القوى الاستعمارية للقضاء على مطالب الجماهير وضرب تقدمها الوطني وتطورها الثوري ، لتنتكس بنا إلى الوراء ، لتعيدنا إلى قبضتها وتستعيد استغلالنا واستنزاف مواردنا وإذلالنا ، الأمر الذي يتطلب توحيد جميع القوى الوطنية في جبهة وطنية من الشعب ، والجيش والحكومة ، وذلك لصد أي غزو إستعماري يتهددنا خطره ، فقد تعود القوات البريطانية . تؤازرها القوات الأمريكية إلى احتلال مصر . . ، وحينئذ ستنشب معركة قنال جديدة ، بخبرة قديمة ووعي جديد . . ، وستجد هذه القوات الغازية القوات الشعبية والحكومية صفا واحدا في قتالهم .. وتتحول الأرض المصرية كلها إلى ساحة قتال ، جنودها الوطنيون الشباب والشيوخ والصبية والنساء . . وكل مواطنو مصر . . حكام ومحكومين الجميع مجندون في جيش التحرير الوطني ، وسيعرف يومها الاستعمار مصداق مافي قول أحد أقطابه ، « ونستون تشرسل » ، حين لم يجد شيئا يصف به كفاح الشعب المصري للتخلص من الاستعمار البريطاني والسيطرة الأجنبية غير قوله ، « إن الشعب المصري متمرد مشاغب لايشبه غير ضباع الدلتا » . . ! نعم شعب مصر يازعيم الاستعمار متمرد على الاستعمار . . وهو في قتاله لقوات العدوانية إنما يشبه تماما

ضباع الدلتا وهى تطارد الخراف من جنود امبراطوريتك المنهارة ،
الشعب المصرى يكافح الاستعمار من زمن بعيد ، وهو اليوم يكافحه
فى الميدان الدولى والمحلى ، وفى مساء ١٣ يونيه الماضى غادر آخر جندى
بريطانى قاعدة القنال المصرية . . ، ولن يلبث الأمر بعد ذلك حتى
يقذف الشعب بخبراء بريطانيا الفنيين الذين استبقتهم المعاهدة المصرية
البريطانية المبرمة فى اكتوبر ١٩٥٤ فى قاعدة القنال لإدارتها . . ،
لن يلبث الأمر بالشعب حتى يقذف بهؤلاء عبر البحر . . ويتخلص
بذلك من ظل الاحتلال البريطانى . . سيما وقد أصبحت هذه المعاهدة
إزاء السياسة المصرية الخارجية الأخيرة غير ذات موضوع . . ، ولم
يبق سوى إعلان إلغائها ولن يعد الأمر حينئذ أن يكون أكثر من
تحصيل لحاصل . . وتصوير لواقع .

هذا ولا تقصر مصر مقاومتها للإستعمار داخل حدودها الإقليمية ،
وإنما تتعدى ذلك فتحاربه خارج حدودها وتوجه إليه ضرباتها فى المجال
الدولى . . ، فمصر دائما تسارع إلى تأييد الشعوب المكافحة للتخلص من
براثنه . . ، تسارع إلى تأييدها المادى والأدبى . . ، كما حدث بشرق
الأردن وكما يحدث اليوم مع شعب الجزائر الباسل فى ثورته التحررية
على الاستعمار الفرنسى ، وكذا تعمل مصر جاهدة على إحباط مشاريع
الحرب الاستعمارية ، وتقوم على تأييد كل مامن شأنه تدعيم السلام
العالمى ، ذلك أن الشعب المصرى يعرف جيداً أن الحرية والسلام
صنوان .. شيئان متلازمان . . ، فلا حرية فى ظـــل الحرب . . ،

ولا استعباد أو إرهاب فى ظل السلام ومشروعات السلام . . والشعب المصرى يعرف أن الحرية كلمة ذات مدلول اجتماعى واقتصادى وسياسى حريتنا فى امتلاك وسائل الإنتاج ، وتحرر الفلاح فى العمل . . فيملك الأرض التى يحرثها لاأن يستبد به مالك كبير ويكرهه على العمل فى أرضه بأجور تافهة لامفر له أن يقبلها دفعا لكارثة البطالة . . وكذا تحرر العلاقات الإنتاجية من الاستبداد ، فتقوم على أساس من حرية الدولة فى إنتاج مايحتاجه مواطنوها ، لاما يفرض عليها الاستعمار إنتاجه لصالح احتكاراته . . ، وأخيرا حريتنا فى إمكانيات التطور وتدعيم استقلالنا الوطنى وانتهاج السياسة التى تمليها مصالح الشعب وحده لامصالح أعدائه من الاستعماريين . . ، سياسة السلام والبناء والرخاء ، وكذا تعنى الحرية أيضا التحرر من البطالة . . وفتح أبواب العمل على مصاريعها للجميع . . فيوجد عمل لكل عامل . . وخبز لكل جائع . . وكذا تعنى الحرية التحرر من الجهل والمرض . . فتفتح المعاهد أبوابها لتقدم العلم لكل مواطن . . والثقافة لكل راغب . . وكذا تفتح المستشفيات والصيدليات أبوابها لكل مريض يعالج ولا يفتقد الدواء ، فالمال فى بلد مستعمر يستبد بالفقراء ويحول بينهم وبين العلاج والثقافة والغذاء . . ، ومن معانى الحرية التحرر من الاستغلال . . والاستعمار استغلال أجنبى لشعب بأكمله . . ، وعلى هداه وتحت ظله وسيطرته يسير أصحاب الأعمال المحليون على استغلال عمالهم أبشع صور الاستغلال والاستغلال هو القانون السائد فى ظل الاستعمار ، وإلى جانب هذه الصور

والألوان من الحرية . . توجد حرية القول والرأى والعقيدة وممارسة الإنسان لحرياته العامة ، كل هذه الصور والمعانى من الحريات تتعطل وتختنق إذا مانشبت حرب استعمارية . . ولا ظل لأى نوع من الحرية بين مخالب الاستعمار . . فهو يسلب ضحاياه من الشعوب التى نكبت به كل نوع من الحرية . . من أجل ذلك كافح الشعب المصرى الاستعمار ولا زال يكافح إلى اليوم وإلى غد ، الاستعمار فى كل مكان .

هذا وتعانى الدول الاستعمارية أزمة طاحنة نتيجة طبيعية لنظامها الاقتصادى . حيث تسيطر الاحتكارات على كل شيء بالدولة وتدير سياستها لصالح خزائنها وبشكل يؤدى بالنظام كله إلى السقوط ، حيث لا تجد هذه الاحتكارات سوى الحرب مخرجا لها من أزماتها . . والاستعمار هو المرحلة العليا من الرأسمالية . . هو غزو فائض رءوس الأموال الاحتكارية لأراضى دولة أخرى حيث الأسواق الجديدة . . ويحمى استثمار هذه الأموال القوات العسكرية المسلحة ، على أن هذه الأسواق قد أغلق أغلبها فى وجه الاستعمار وذلك بانتصار الشعوب فى كفاحها التحررى وانسلاخ أكثرها من قبضة الاستعمار ، الأمر الذى ضاعف من الأزمة الاقتصادية داخل الدول الاستعمارية .

وترجع هذه الأزمة لعوامل عدة أهمها : قلة الأجور للعمال مع زيادة ساعات العمل وغلاء الأسعار ، الأمر الذى أدى إلى هبوط مستوى المعيشة وعجز الناس عن استهلاك كل الانتاج . وعجز أصحاب الاحتكارات عن تصريف إنتاج مصانعهم بسبب انخفاض القدرة

الشرائية لمواطنيهم وكذا فقدان أكثر الأسواق الخارجية . . أسواق الدول التى كانت من قبل أن تتحرر ضمن المستعمرات .. فترا كم بذلك الانتاج وتكدست السلع فى المخازن .. الأمر الذى أدى إلى انخفاض أسعارها وبالتالى إزدياد خفض أجور العمال وفصل أغلبهم .. فتفاقمت البطالة . . ، واضطرت السلطات أن تطبع أوراق نقدية بلا رصيد يقابلها ، فهبطت القيمة النقدية وأصبحت بذلك الأجور أدنى من قيمتها الإسمية .. تعانى بذلك الدول الاستعمارية انهياراً إقتصادياً شاملا . . الأمر الذى أدى إلى ازدياد الجرائم وانتشارها . . ، وأصبحت عوامل الثورة على النظام العفن الحاكم مهيأة للعمل . . ، وبذلك لم يجد الاحتكار الذى يحكم هذه الدول وسيلة لحل هذه الأزمة أو التخفيف منها أو حتى تأجيلها سوى الحرب . . فأخذ يوجه أجهزة الدولة للاستعداد لها .. واصطنع بين الحين والآخر جواً من التوتر الدولى لينفذ من خلاله إلى إشعال حرب جديدة تعيد إليه ما افتقد من أسواق خارجية . . كما تستوعب جيوش العاطلين وتمتلىء خزائن الاحتكاريين بالأموال التى تدفعها الحكومات ثمناً لما ينتجوه من أسلحة .

وقد سلكت حكومة وشنطن وتبعتها حكومة لندن ذلك المسلك فأخذت تستعد كل منهـا للحرب . . فدارت عجلات المصانع التى كانت تدور على مهل وعادت تدور فى نشاط لإنتاج السلاح .. وابتلعت هذه الأسلحة أغلب ميزانية كل من الدولتين . . ، ونتيجة لذلك قلت السلع المدنية وارتفعت أسعارها وراجت تجارة السوق السوداء وتضاعفت

أرباح تجار السلاح .. . كما استوعبت مصانع السلاح جزءاً من العمال العاطلين . . وبقى الجزء الآخر فى انتظار أن تلتهمه نيران حرب جديدة حيث تقوم الدولة بتجنيدهم جميعاً وقتئذ وتحل بذلك أزمة البطالة على هذا النحو الدموى .. ! والدول الاستعمارية وهى ترغب فى الحرب إنما لتفتح أسواقاً تستوعب إنتاجها .. تفتحها بقوة الحديد والنار .. ! وقد صرح ترومان فى ٦ مارس ١٩٤٦ قائلا « يجب علينا أن نقوم بدور الإدارة والتنظيم فى العالم » . إدارة استغلال الاحتكار الأمريكى لشعوب العالم وتنظيم استثمار رؤوس أمواله الفائضة وتوزيع منتجاته وحين تولى إيزنهاور رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية . كان أكثر صراحة من سلفه حين قال «راقتصادنا إقتصاد حربى وازدهارنا إزدهار حربى » . . . ! ، وقد اتخذ تصريح الرئيسين اللذان ينتميان لحزبين مختلفين الديمقراطى والجمهورى ، ويمثلان قوة واحدة هى الاحتكار الأمريكى ، اتخذت تصريحاتهما فى المجال الدولى مظاهر التكتلات العسكرية التى أنشأتها أمريكا وتحاول وحليفتها بريطانيا نشرها بمختلف أنحاء العالم « للقيام بدور الزعامة فى الإدارة والتنظيم » فكانت أحلاف ، الأطلنطى الجيش الأوروبى ، تركيا العراق مشروع مارشال ، النقطة الرابعة ، قروض البنك الدولى .. الخ .

إن مصر التى رفضت الاشتراك فى مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ، الذى تقدمت به الدول الأربع ، أمريكا ، انجلترا ، فرنسا ، تركيا ، خلال معركة القنال ، لا زالت ترفض وتقاوم الارتباط بأى من

هذه الأحلاف مهما ارتدت من ثيـاب جديدة . . ، لن ترتبط مصر بالمعسكر الاستعمارى الذى يعدلحرب جديدة تقاومها شعوب العالم بكل قواها .. حيث لازالت الخسائر الجهنمية التى لحقت البشرية ماثلة بأذهان الجماهير .. ، فى الحرب العالمية الثانية قتل ٣٢مليون جندى ، ٢٥ مليون مدنى ، وجرح وشـوه ، ٣٥ مليون شخص ، وتيتم ١٧ مليون طفل ، وتدمر ٣٠ مليون بيت ، وفقد٢٢ مليوناً مساكنهم وأمتعتهم ، وقد بلغ قيمة ما دمرته الحرب من منتجات مدنية ٢٦٠ملياراً من الدولارات..!

ويقول دكتور « جيروم ديفز » فى كتاب « السلام والحرب وأنت » «أن الحرب العالمية الثانية فوق ما أزهقت من ملايين الأرواح البشرية (٧٥ مليون قتيل) قد إبتلعت قيما مادية ضخمة ومبالغ طائلة كانت تكفى لبناء وتأثيث بيت مؤلف من خمس غرف لكل عائلة فى العالم ويتبقى بعد ذلك ما يكفى لبناء مستشفى لكل مدينة بالعالم يزيد عددسكانها عن خمسة آلاف نسمة » !! . لم يستفد من الحرب سوى تجار السلاح ومحتكرى القوت وأصحاب البترول والمصارف ... نعم لن يستفيد من الحرب سوى الاحتكار ... فبينما يجنى الاحتكاريون من الحرب ملايين الجنيهات ، تجنى الشعوب الفاقة والمرض والخراب والإملاق والموت.. فمن أجل أرباح حفنة من الاحتكاريين الذين يسيطرون على الحكم فى أمريكا وانجلترا ، تخوض شعوب العالم حروباً دموية تعود عليها بالدمار والوبال . . من أجل ذلك عزمت الشعوب فى إصرار وعناد على عدم خوض حرب جديدة . . ولما كان الاستعمار هو الذى يحمل

ميكروب الحرب . . ولما كانت مصر قد أصابها غير قليل من الخسائر خلال الحربين الماضيين بسبب وقوعها فى قبضة الاستعمار . . فقد حارب الشعب الاستعمار وبذل الكثير من التضحيات للتخلص منه . . فقد خاض الشعب معركة القنال ليطرد القوات البريطانية من أرض القنال ويتخلص من الاستعمار ويحطم بذلك إحدى قلاع الحرب والعدوان التى كان يعتمد عليها الاستعمار بالشرق الأوسط فى مشروعاته العدوانية . . ويتخلص بذلك من دفعه إلى خوض غمار حرب عدوانية استعمارية لا ناقة له فيها ولا جمل .

وكفاح مصر اليوم من أجل السلام العالمى . إنما يضاعف من الأزمات التى تأكل فى بناء الدول الاستعمارية ويعجل من انهيارها فيسقط النظام الاستعمارى الحاكم ، ويحل مكانه نظام إشتراكى لا استعمار فيه ولا حروب . هذا وقد دلل على استحالة حياة النظام الحاكم اليوم بأمريكا وانجلترا بلا حرب ، الجنرال الأمريكى « هولد ريدج » إذ قال : « الاقتصاد الأمريكى لايعيش إلا بالحرب ، فالصلة بينه وبين الحرب ظاهرة معلومة ، إن المؤسسات الصناعية الاحتكارية فى أمريكا تتزاحم للحصول على عقود مفيدة للحرب ، لأنها بدونها مهددة بالإفلاس » . وجاء قول الجنرال الأمريكى تأكيداً لقول رئيس دولته إيزنهاور : « إقتصادنا إقتصاد حربى وإزدهارنا إزدهار حربى » !! . ونتيجة لهذه السياسة الحربية لحكومة وشنطن . يعانى الشعب الأمريكى الفقر والعوز وشظف العيش وكبت الحريات فى ظل حكومته الاستعمارية ، والإحصائية

التالية تبين مدى العدوان الذى ترتكبه الطبقة الحاكمة الأمريكية على الشعب الأمريكى نفسه .

فبالولايات المتحدة الأمريكية ٥٤ مليون أمريكى يعتمدون فى حياتهم على العمل فى الزراعة ٨٠ ٪ من هؤلاء يشربون من الآبار ويستحمون ويغسلون ملابسهم خارج بيوتهم . . أى أن ٣٥ مليون فلاح أمريكى لايجدون فى بيوتهم الماء والكهرباء . . هذا وقد ازدادت نفقات المعيشة بنسبة ١٦٣ ٪ عنها فى عام ٣٩ ، وبلغت ديون السكان لبائعى السلع الاستهلاكية عام ٥٢ مبلغ ٢١ مليار و ٥٠٠ مليون دولار كما ازدادت الضرائب إلى ١٢ ضعفا عما كانت عليه فى عام ٣٧ . . وفى عام ٣١ سرح من العمل ١١٧ الف عامل فى صناعة النسيج و ١١٠ الف عامل فى صناعة السيارات .. وفقد ١٤ ٪ من عمال الأحذية عملهم . . ويبلغ عدد العمال العاطلين اليوم ٣ ملايين فى بطالة كاملة و ١٠ ملايين فى بطالة جزئية . . وقد أوقفت الحكومة بناء ٧٣١ مدرسة ومنعت مواصلة بناء ٨٠٨ مدرسة ، كما يوجد أربعة ملايين طفل فى سن الدراسة لامدارس لهم !! . .

وبينما تلك هى حال الشعب الأمريكى وإجراءات حكومته من حاجياته الحيوية ، نجد ما تخصص به الشئون الحربية فى ميزانيتها أكثر من ثلاثة أرباعها . . . فقد بلغت المخصصات الحربية من الميزانية الأمريكية لعام ٥٣ — ١٩٥٤ ، ٨٣ ٪ ، بينما بلغت مخصصات التعليم والصحة ٣ ٪ وبلغ العجز فى ميزانية ١٩٥٣ ، ١٦ ألف مليون دولار وهكذا

نرى مدى النقص الذى تعمد إليـه حكومة أمريكا فى اعتمادات البناء السلمى . . . فى اعتمادات الميزانية التى تخص حياة الشعب . . . نقص خطير فى ميزانية التعليم والصحة والصناعة السلمية وأجور العمال والسلع الاستهلاكية . . وزيادة فاحشة فى الضرائب وأجور السكن ونفقات التعليم وأسعار المواد الغذائية . . ، وذلك كله لاندفاع حكومة أمريكا نحو التحضير للحرب إندفاعاً جنونياً . . ! وأمريكا وهـذا حالها تزعم أنها تصدر مساعدات مالية إلى من شملتهم بالدول المتخلفة للعمل على نشر الرخاء والمدنية بها . . الرخاء الذى حرم منه الشعب الأمريكى نفسه . . !

هذا وسنرى أى رخاء ذاك الذى حققته حكومة واشنطن لشعوب الدول التى ارتبطت بها سواء بالأحلاف أو المساعدات الاقتصادية . . ، وأهم هذه الدول التى فتحت أبوابها للغزو الأمريكى باسم المساعدات المالية والفنية والأحلاف العسكرية هى تركيا . . ومن الأرقام التالية نعرف مدى الدمار والتأخر الذى أصاب الشعب التركى من وراء ارتباط حكومته بحكومة وشنطن . . بحكومة الحرب . .

تنفق الحكومة التركية ٨٤ ٪ من ميزانيتها على الجيش والبوليس .

وقد صرح وزير الصحة التركى السيد « أكرم احتداق » قائلا : « أن عشرة ملايين وخمسمائة ألف تركى مصابون بالسل . . أى ٦٠ ٪ من السكان . . يموت منهم سـنوياً ١٠٠ ألف شخص » . . ومرض

السل هو المظهر الإيجابي في الإنسان لسوء التغذية . . للفقر والمسغبة . . للرخاء الذي تزعمه أمريكا . . !

ونشرت جريدة «وطن» الرسمية «أن ٢٠٠ ألف شخص يموتون سنوياً بسبب انعدام الإسعافات الطبية» ، هذا ويبلغ متوسط ضحايا الملاريا سنوياً ٢ مليون وخمسمائة ألف شخص ، ومرضى الزهرى ١,٢٤٤٨٠ شخصاً ، ويوجد في اسطنبول أكثر من عشرة آلاف بغي بترخيص رسمي ، وبالمدن الكبرى أكثر من ستمائة محل عام للبغاء . . ، ويبلغ عدد الأطفال المشردين بشوارع المدن التركية ٣٦٠ ألف طفل ، وعدد الفلاحين المعدمين شبه العاطلين ٦ ملايين فلاح يتضورون جوعاً ، هذا ولا يتجاوز عدد الأطباء في جميع أنحاء تركيا ثلاثة آلاف طبيب يقيم أكثرهم بالمدن . . ، وتخلو ٢٥٧ مدينة من الصيدليات ويبلغ عدد الأميون ١٦,٥٠٠ . . ! والأرقام السابقة المروعة هي آخر ما وصل إلينا عن مجهودات حكومة وشنطن بتركيا (عام ٥٣) وقد أدت سياسة الاندفاع خلف الاستعمار الأمريكي ، أن صرفت حكومة أنقرة غالب جهودها في كبت المقاومة الوطنية للاستعمار الأمريكي ومشروعاته المدمرة بتركيا . . ! ، فبدلا من أن تبني الحكومة المستشفيات والمدارس والمشروعات الصناعية والعمرانية ، تبني السجون والمعتقلات . . وتنفق أموال الشعب على التسلح . . فيبلغ تعداد السجون التركية خمسمائة سجن . . ورغم ذلك فإنها لم تكف لابتلاع ضحايا سياسة العدوان والحرب فأنشأت الحكومة ثمانية وعشرين

سجناً جديداً خلال عام ١٩٥٣ . وبلغ تعداد من حشدتهم السلطات التركية فى السجون والمعتقلات فى السنوات الأخيرة ٣٥ ألف مواطن حر يرفضون أن تكون بلادهم مرتعاً لمشروعات الغزو الأمريكى .. وكذا أعدم المئات بدون محاكمات ..!!

وقد ورد فى تقرير وزير العمل « بالراس » عن الحالة الإنتاجية فى تركيا على أثر ارتباطها ببرامج المساعدة الأمريكية ما يلى :

« أغلقت ١٢ مؤسسة صناعية أبوابها وتوقفت عن العمل وهبط إنتاج بقية المؤسسات الصناعية التركية إلى ٨٠ ٪ » !

تلك هى حال الصناعة التركية بلسان وزير العمل التركى أثر انضمام تركيا لحلف الأطلنطى وقبولها المساعدات الفنية والمالية الامريكية .. حيث لم تستطع المصنوعات التركية الوقوف أمام المنتجات الأمريكية التى أغرق بها برنامج المساعدة الأمريكى الأسواق التركية !!.

وقد جرّت أمريكا حكومة تركيا إلى الاشتراك فى الحرب العدوانية الاستعمارية التى خاضتها حكومتا وشنطن ولندن وحلفائهما ضد الشعب الكورى ... جرّت أمريكا تركيا للاشتراك مع جيوشها ضد قوات الشعب الكورى التى كانت تدافع عن حرية كوريا على الأرض الكورية ... وقد خرجت تركيا من هذه الحرب التى لم يكن لها بها ثمة ناقة أو جمل ... والتى خاضت غمارها لصالح الدول الاستعمارية بزعامة أمريكا ... بلغت خسائر تركيا فى هذه الحرب أكثر من ١٣ ألف

قتيل وجريح وأسير ، ذهبوا ضحية محاولة فرض السيطرة الاستعمارية على الشعب الكورى . . . ! !

وتركيا اليوم ، ليست أكثر من قاعدة عسكرية أمريكية ومصنعاً للأسلحة الحربية . . . ومركزاً استراتيجياً هجومياً للقوى الاستعمارية على حريات الشعوب . . . قاعدة عسكرية عدوانية تهديدية للسلام العالمى . . . كما أصبحت تركيا سجناً كبيراً للأحرار . . . وهى من بعد عضو فى أكثر من حلف عسكرى رجعى عدوانى استعمارى ، عضو فى أحلاف : الأطلنطى ، البلقان ، بغداد . . . تلك هى آثار ارتباط تركيا بحكومة الولايات المتحدة الأمريكية . . . وهى تحاول جاهدة أن تربط مصر بسياستها على نحو ما ربطت تركيا . . . إلا أن مصر تقف من العروض الأمريكية موقف الحذر وترفض أن ترتبط بأى حلف من أحلافها . . . ترفض فى إصرار وعزم أن تفتح أبوابها لغزو الدولار الأمريكى ومشروعاته الاستعمارية ولو أدى ذلك إلى معركة قتال أخرى .

وتعانى بريطانيا نفس الأزمة التى تعانيها أمريكا . . . نتيجة طبيعية للنظام الاستعمارى الذى تسير عليه حكومة الاحتكار البريطانى وتفرضه على جماهير الشعب الإنجليزى . . . فمشروعات التسلح تمتص أغلب الدخل القومى البريطانى . . . حيث بلغت النفقات الحربية خلال عام ٥٢ — ١٩٥٣ ملياراً وستمائة أربعة وثلاثون جنيهاً إسترلينياً . . . وتكلف القوات البريطانية المحتلة أراضى أجنبية الخزانة البريطانية سنوياً ٣٥٤ مليون جنيه إسترلينى . . . ! وكان من الأجدر أن تنفق

كل هـذه الأموال على الشعب البريطانى الذى تقول إحصائية وزارة العمل عن حالته المعيشية ما يأتى :

« ارتفعت نفقات المعيشة بنسبة ٢٩٪ عام ٥٤ عما كانت عليه عام ١٩٥٠ وكذا ارتفعت أسعـار المواد الغذائية والكسائية ، وعلى حين يرتفع الإنتاج الحربى ، يهبط الإنتاج المدنى . ففى عام ٥٢ انخفض إنتاج النسيج بنسبة ١٢٪ عما كان عليه فى عام ٥١ وانكمشت ميزانيات التعليم ، الصحة ، المساكن ، الطفولة ، التأمين الاجتماعى إلى ٤٠٪ ، وأدى ذلك إلى تفاقم البطالة حيث يبلغ عدد العمال الإنجليز العاطلين اليوم أكثر من مليون عامل . . . ! وفى أبريل ١٩٥٣ فقد ٤٤ ألف عامل عملهم دفعة واحدة ! » .

يا لهول الأزمة التى تنخر فى عظام الإمبراطورية العجوز ، والتى قد تدفعها إلى ارتكاب حماقة يائسة بمحاولة غزو مصر وفرض سيطرتها لاستعادة أسواقها وخاماتها ، وهنا ستنشب معركة قنال جديدة يخوضها الشعب المصرى بكل قواته الجماهيرية والحكومية معاً ، ولن تخرج منها بريطانيا سوى بالهزيمة والخيبة .

ولنترك بريطانيا إلى دولة استعمارية أخرى ، نكبت بسياستها الشعوب عامة والشعوب التى تعانى استعمارها خاصـة . . ، تلك هى فرنسا . . التى تنفق حكومتها سنوياً على التسلح ٧٥٠ مليون دولاراً من أموال الشعب الفرنسى ودماء أبناء مستعمراتها . . ، على حين يعيش فى بيوت أشبه بالأكواخ نحو سبعة ملايين فرنسى على أشد

ما يكون البؤس والإملاق . . ، وفى حظائر الحيوانات ومخازن العلف يعيش ٢٢ ألف عامل زراعى عيشة الضنك والشقاء وقد انخفض إنتاج المنسوجات فى السنوات الأخيرة بنسبة ١٤ ٪ عما كان عليه عام ١٩٥٠ وإنتاج الجرارات بنسبة ٨٧ ٪ ، والآلات الزراعية بنسبة ٤٢ ٪ ، وفقد ٨٠ ألف عامل من عمال المناجم والفحم عملهم ، وفى عام ٥٢ انخفض إنتاج السلع الاستهلاكية بنسبة ١٠ ٪ ، الزجاج ١٦ ٪ ، النسيج ١٠ ٪ ، الجلود ١٢ ٪ ، المواد الدهنية ١٢ ٪ الورق ٢٠ ٪ ، بينما ارتفع إنتاج الصناعات الحربية من ١١ ٪ إلى ٢٧ ٪ ، والانخفاض فى الإنتاج السلمى يزداد عاماً بعد آخر بينما يتوالى ارتفاع الإنتاج الحربى .! ولا يبلغ القيمة الحقيقية لأجر العامل الفرنسى نصف ماكان عليه عام ١٩٣٨ ، وكان نصيب الأجور من الدخل القومى عام ٤٧ — ٤٠ ٪ أما اليوم فيبلغ ٢٩ ٪ .!

تلك هى فرنسا التى تعانى حكومتها مثل ما تعانى حكومتا لندن ووشنطن من أزمة طاحنة تقوض من نظامهم الاستعمارى وتضعف من كيانه ، حتى أن حكومة باريس أرسلت إلى الجزائر ثلاثمائة ألف جندى فرنسى لتقضى على الحركة الثورية الجزائرية للتحرر من الاستعمار الفرنسى ، ثلاثمائة ألف جندى فرنسى بأسلحتهم وعتادهم ، ومع ذلك تتوالى عليهم الهزائم وانتصارات القوى الوطنية التى تخوض المعركة بإيمان وعقيدة وفدائية وطنية ، بينما يقاتل الجنود الفرنسون بلا إيمان ، وهل يوجد من يؤمن بالاستعمار سوى الاحتكار .؟!

وبعد . فتلك هى أزمة الاستعمار فى عجالة وإيجاز . الاستعمار الذى تنسلخ من قبضته ضحاياه يوماً بعد آخر ، والذى يعانى الاضطراب والأزمات داخل بلاده ، الأمر الذى ينذر بقرب إنهياره وينبىء بوشك فنائه وهو من ذلك يتخبط فى سياسته ويحيك المؤامرة التى سرعان ما تحبطها الشعوب فيسارع بتدبير أخرى ، وهو قبيل انهياره سيضرب بكل ما بقى لديه من قوة ، وستكون ضربته تلك مردودة إليه قاضية عليه .

ومصر التى تتزعم مقاومة الاستعمار اليوم فى الشرق الأوسط تؤازرها شعوب العالم ، مصر هذه لم تستكن يوماً لعدوان الاستعمار ، فهى فى كفاح دائم متصل منذ الساعة التى اقتحمت فيها القوات البريطانية الأراضى المصرية ، وكانت معركة القنال إحدى فصول هذا الكفاح الذى تطور إلى أن حمل الشعب السلاح بأرض القنال .

وقد كانت معركة القنال وسيلة الشعب الجادة فى التخلص من الاستعمار . . ، ومنها أدرك الاستعمار أن لم يعد له مكان بأرض مصر . . وقد أفلت الزمام من أيدى رجاله وحلفائه وعملائه .. ، وقد سلك الشعب بكفاحة المسلح بالقنال ، الطريق الصحيح فى مقاومة الشعوب لمستعمريها .

وكانت معركة القنال ، معركة تحريرية وطنية ، هدفت إلى تحرير مصر من الاستعمار . . ، كانت حركة وثابة فعالة فى سبيل السلام العالمى وذلك بتحطيم القاعدة العسكرية الهجومية البريطانية بالقنال .. والتى كان الاستعمار الغربى يرتكز عليها بالشرق الأوسط . . ويتخذ منها قاعدة

عدوانية هجومية فى حروبه الإستعمارية ومشروعاته العسكرية التهديدية للسلام العالمى ، والتى كانت استفزازا عسكريا لدول الكتلة الشرقية التى يهدف الاستعمار إلى شن الحرب عليها .

وحين خاض الشعب المصرى معركة القنال لطرد القوات العسكرية البريطانية من قاعدة القنال ، إنما كان بذلك يساهم فى تحرير الشعوب الواقعة فى قبضة الاستعمار البريطانى ، الذى كان يسارع بنقل نجدات عسكرية سريعة من القنال إلى شعوب الدول القريبة التى تحاول أن تثور عليه وتكافح للتحرر منه ، فضلا عما فى تخلص مصر من الاستعمار البريطانى من ضربة قوية للاستعمار العالمى عامة والبريطانى خاصة ، مما يزعزع كيانه ويعجل بنهايته ، ويقوى من جبهة الشعوب المعادية للاستعمار والمدعمة للسلام .

ومما لا شك فيه ، أن تمام رحيل الجنود البريطانيين عن قاعدة قنال السويس مساء ١٣ يونيه الماضى ، إنما هو وليد لمعركة القنال والتهديد بشنها من جديد ، بشكل أكثر وعيا ، وخبرة أشمل ، وتنظيم أقوى وأسلم . وقبل ذلك وبعده ، بلا خيانة . فلا ملك بالبلاد ولا احتكاريون وإقطاعيون بالحكم يطعنون الشعب من الخلف ، فضلا عن ضعف الاستعمار أمام ضربات الشعوب وما يعانيه من أزمة طاحنة داخل بلاده .

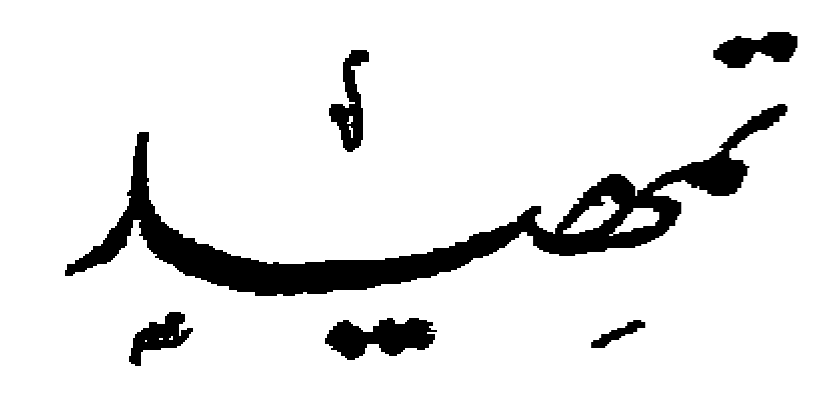
هذا وتدور هذه الأيام بشمال إفريقيا معركة كفاح مسلح ضد قوات الاستعمار الفرنسى . . معركة جماهيرية منظمة تتوالى خلالها

انتصارات الجماهير الوطنية وإن كانت قوات العدوان والاستعمارى تحاول أن تستر هزائمها بما تقوم به من جرائم الإبادة بالجملة وما تسلك فى قتالها من وحشية وبربرية .

وتنال حركة الشعب الجزائرى من شعب مصر كل صور التأييد المادى والأدبى حتى يلقى بآخر جندى فرنسى عبر البحر ، وتنفض بذلك تونس والجزائر عن كاهلهما ما كان يعلق بهما من قاذورات الاستعمار وميكروباته .

ومعركة القنال تقدم لمعركة الجزائر تحياتها الصادقة ، يقدم الذين قاتلوا الإنجليز بالقنال تحياتهم للذين يقاتلون الفرنسيين بالجزائر . . وللذين يقاتلون الاستعمار فى كل مكان .

سعد زغلول فؤاد
أول أغسطس ١٩٥٦
« دار الشهيد الأعسر — إسكندرية »



تمهيد

لكل شعب قصة ، قصة تروى تطوره وكفاحه من أجل التحرر ، تحرر من العبودية ، تحرر من الاستعمار ، وتحرر من الاستغلال ، قصة تروى شتى صور كفاحه ضد العقبات التى اعترضت تحرره وتطوره ، سواء كانت هذه العقبات من الإنسان أو الطبيعة ، وكيف أن الجماهير كانت دائماً تتغلب فى النهاية عليها ، وتنتقل إثر ذلك إلى مراحل أرقى من التقدم والتحرر ، وهى فى كفاحها هذا ، إنما تسخر قوى الطبيعة والبشر لتكون فى خدمة الإنسان ، وتصل فى النهاية إلى خلق عالم سعيد ، لمواطنين أحرار ، وتلك هى قصة كل شعب ورسالة الجماهير فى كل مكان ، وللشعب المصرى قصة كفاح طويل كانت معركة القنال إحدى فصولها المثيرة ، وإن كانت جد قصيرة ، وإن كان هذا الفصل من القصة لم يشغل من الصفحات طويلا ، إلا أنه زاخر بالأحداث السريعة المتلاحقة ، التى كان أروعها تلك الالتحامات المسلحة بين الفدائيين المصريين وقوات الغزو البريطانية ، والتى كان أعنفها تلك الدراما البشعة التى ختمت بها هذه الأحداث ، حيث أسدل الستار عليها بمشهد القاهرة وهى تأكلها النيران !

وبحريق القاهرة توقفت معركة القنال التى عجز الاستعمار وعملاؤه أن يقضوا عليها أو يخففوا من حدتها وتطورها بما لديهم من أسلحة

وعتاد وجند كثير ، فلجأوا إلى أسلحة أخرى لا يستعين بها سوى الجبناء ، أسلحة من النذالة والخسة والجبن ، لجأوا إلى مؤامرة حريق القاهرة وإشاعة الفوضى والذعر والاضطراب ، كمسوغ لإعلان الحكم العرفى ، وإقامة حكومات انقلابية تعتقل الفدائيين وتنضم إلى الغزاة صراحة ، وتسخر قوى الدولة العسكرية لحماية قوات الغزو ومطاردة الوطنيين وحشدهم بالسجون والمعتقلات !

وسيرى القارىء فى الحديث عن حريق القاهرة ، كيف انطلق رجال البوليس السياسى يعتقلون الفدائيين بالقنال والوطنين بالقاهرة ، ومرسوم الحكم العرفى لم يكن قد أعلن بعد ، بل تمت بعض اعتقالات الفدائيين بالقنال ، وألسنة النيران كانت لا تزال مندلعة فى منشآت القاهرة !

على أن معركة القنال لم تنشب فجأة وإنما جاءت نتيجة لعوامل عدة وأثر مقدمات طويلة من الكفاح الشعبى والأحداث السياسية المحلية والعالمية ، والذى لا ريب فيه ، أن معركة القنال كانت مرحلة تطورية ونقطة تحول فى كفاح الشعب المصرى ، وأنها معركة قام بها أبناء الشعب وخاضت الجماهير غمارها وتحملت وحدها أعباءها والتزاماتها وعواقبها ، وقاست مرارة فشلها وانتكاسها ، وعليها وحدها انصبت ضربات أعدائها ، معركة غذاها الشعب بالجهد والعرق والدم ، معركة امتازت بشعبيتها وبعدها عن التدخل الحكومى وغير الحكومى . وعلى رغم أن المعركة كانت قصيرة خاطفة ، إلا أنها لامعة براقة فى تاريخنا

الوطني وكفاحنا الشعبي ، فقد أحدثت دوياً شديداً بمختلف بلدان العالم كما تركت بمصر آثار عميقة راسخة فى مفهوم الجماهير الكفاحي ووعيها التحررى ، فلم تعد الجماهير تؤمن بغير الكفاح المسلح طريقاً للتحرر ، واحترقت بذلك ورقة المفاوضات تماماً ، تلك الورقة التى كان يلعب بها كل من من الاستعمار والحكومات المتهادنة لتبديد ثورية الجماهير وتخديرها وتضليلها ، فلم يعد مواطن واحد يؤمن بالمفاوضات وسيلة لإجراء الغاصب ، ولم يعد يرى من وسيلة فعالة ووحيدة لذلك سوى الكفاح المسلح ، فالجماهير التى تحمل السلاح وتخوض معركة دموية من أجل تحررها ، لن تلقى السلاح أبداً دون حريتها ، وإن ألقته يوماً ، فإنما ينتزع منها وتلقه كارهة بعوامل القهر والكبت والإرهاب ريثما تستعيد أنفاسها لتواصل المعركة مرة أخرى .

ولن ينسى الشعب المصرى معركة القنال وكفاح القنال ، ولن تستطيع الأحداث الجديدة ، ولا شتى صنوف التضليل أن تطرد أو تطمس من أذهان المصريين أنصع أيامهم وألمع فترات كفاحهم وأمجدها ، أيام القنال ، وكفاح القنال ، مقاومة القوى الشعبية لقوى الاستعمار ، بالحديد والنار .

طريق المعركة

كانت سنوات ٤٥ — ١٩٥٠ سنين حالكة عصيبة فى تاريخ الشعب المصرى ، فقد عانت الجماهير خلالها صنوفاً من الكبت والإرهاب والتضييق على حرياتها والاستهتار بحياتها وإهدار مصالحها ، غانت من كل هذا الكثير ، وانعكس ذلك على تحركاتها وثوريتها ، فقد كانت حكومات هذه الحقبة الممثلة للاحتكار ورأس المال والإقطاع ورجال المال ، والمتحالفين مع الاستعمار ، والمتناقضين مع الشعب .. ، المعادين لطبقاته الكادحة بحكم وضعهم الطبقى ومصالحهم المادية .. ، وعليه فقد اشتد تباين الطبقات واحتدم الصراع الطبقى واشتد أواره خلال هذه الفترة . وقد ساعد على نمو هذا الصراع واحتدامه ظروف عالمية وأخرى محلية ، فقد كان للحرب العالمية الثانية أثرها البالغ فى تكييف الوضع الاقتصادى والسياسى والاجتماعى المصرى ، إذ كان نتيجة للحصار الحربى المضرب حول مصر ، بوصفها قاعدة حربية وتموينية لبريطانيا وحلفائها ، وامتناع الواردات السلعية من الخارج ، أن نشأت صناعات محلية جديدة ونمت الصناعات القديمة لسد حاجة الاستهلاك المحلى المتزايد بمصر وجاراتها العربية ، فنمت بذلك الرأسمالية المحلية وأثرى الاحتكاريون المصريون ، ونمت بالتالى الطبقة العاملة نموا ، سريعا ، ساعد من نموها ابتلاع المصانع الحربية الإنجليزية مئات الألوف من الأيدى العاملة ، وكان للحرب أثر آخر ضمن آثارها الكثيرة ، فقد

بدأت الأزمة الاقتصادية تجتاح مصر وتزداد حدتها يوما بعد آخر نتيجة للتضخم المالى المتزايد وقلة المواد التموينية ، ووقع عبء هذه الأزمة على كاهل الطبقات الكادحة وحدها ، بينما أصاب الطبقات الحاكمة من الاحتكاريين والإقطاعيين وكبار التجار ثراء واسعا . وبذلك وضح التناقض بين الطبقات الحاكمة والمحكومة خلال الحرب وفى أعقابها ، ولم يستطع صغار الموظفين والتجار والفلاحين والعمال والطلاب أبناء كل هذه الطوائف ، لم يستطع كل هؤلاء سد حجياتهم المعيشية أمام الارتفاع الجنونى للأسعار وحدة غلاء المواد التموينية والكسائية والسكنية ، بشكل كادت تكون فيه قاصرة على الطبقات العليا ومن سموا بأثرياء الحرب ، كانت كل هذه المظاهر ، نتيجة لعوامل عدة أهمها :

* أن مصر خلال الحرب ، قد سخر اقتصادها وتمويلها وشتى مواردها ومنتجاتها فى خدمة جيوش الحلفاء ، فعانت جماهير الشعب من جراء ذلك عنتاً وإرهاقا معيشياً شديداً .

* جيوش العمال العاطلين ، الذين خلفتهم الحرب . فما أن توقف القتال حتى توقفت المصانع الحربية عن العمل وألقت بعمالها خارج أسوارها ، كما قل إنتاج المصانع المدنية واستغنت عن بعض عمالها الأمر الذى ضاعف من حدة الأزمة وأدى إلى خفض أجور العمال بشتى المصانع .

* توالى ارتفاع الأسعار التى بلغت نسبتها فى أعقاب الحرب ٥٠٠٪

عما كانت عليه فى بدايتها ، فى حين استمرت أجور ذوى الدخل المحدود كما كانت عليه ، أو ارتفاعها بنسبة واهية لم تتعد ٢٪ !

فالأزمة الاقتصادية كانت تأكل الجماهير الشعبية خلال الحرب وفى أعقابها ، بينما استفادت من جرائها العناصر الرأسمالية التى نمى بعضها فى الظروف السابقة وبلغ مرحلة الإحتكارية . كل ما سبق بعض آثار الحرب بمصر ، أما آثارها الأخرى فقد جاءت من خارج مصر ، فالحرب العالمية الثانية ذات طبيعة تحررية خاضتها الجيوش المتحالفة لتقضى على الفاشية الإستعمارية التى كانت تعمل على إبتلاع العالم وتسخير موارده لخدمة الاحتكارية الألمانية والإيطالية واليابانية ، وكان بديهياً وتلك هى طبيعة الحرب التى خاض غمارها الحلفاء ، أن تنتشر على ضوء حملات الدعاية التى شنتها الأجهزة الدعائية لجيوشهم معانى الحرية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعرفت شعوب العالم الحريات الأربعة التى قيل أن جيوش الحلفاء تقاتل من أجلها ، والتى أعلنها قادة الاتحاد السوفيتى ، أمريكا ، بريطانيا ، الصين فى مؤتمر « يالتا » وأكدوها فى مؤتمرى طهران والقاهرة هدفا لقتالهم ، كذلك كان من آثار الحرب أن تحررت شعوب كثيرة من نير الاستعمار ، كرومانيا ، بلغاريا ، يوغوسلافيا ، تشكوسلوفاكيا ، بولندة ، المجر وسائر دول وسط أوروبا وشبه جزيرة البلقان كألبانيا كما تحررت سوريا ولبنان بالشرق الأوسط والصين بالشرق الأقصى ، كما نشبت عدة ثورات تحررية عقب الحرب فى الملايو ، بورما ، إندونيسيا ، كوريا ، فيتنام ، واضطرت القوات

العسكرية البريطانية أن تجلو عن الهند إثر احتلال دام قرنين من الزمن ... فكان لهذه المعارك التحريرية أثرها البالغ فى نفسية الشعب المصرى وتكييف قضيته الوطنية فهو الذى اشترك فى الحرب بموارده وشتى صور المساعدة بأن كانت بلاده كلها فى خدمة جيوش الحلفاء ، اطمئناناً منه إلى وعود التحرر والجلاء التى بذلها قادة بريطانيا لمصر خلال الحرب وتمسكا منه بالأهداف التى أعلن الحلفاء أنهم يقاتلون من أجلها ، وبذلك صحت عزيمة الشعب على أن يطالب بحريته ويطهر أرضه من الغزاة مهما بلغ الثمن .

هذا ولم تكن جماهير الشعب وحدها هى التى تطلب الاستقلال ، فقد انضم لها فى ذلك طبقة التجار والرأسماليين الذين وجدوا السلع البريطانية تغمر السوق المصرى وتنافس منتجاتهم التى كانت تنفرد بالسوق المحلى خلال الحرب ، بل وبالأسواق العربية المجاورة ، وكذلك كانت هذه الفئة من التجار والرأسماليين قد صدروا بعض أموالهم الفائضة إلى بريطانيا لاستثمارها على شكل أرصدة إسترلينية مقابل الخدمات والسلع التى قدموها لجيوش بريطانيا خلال الحرب ، ولكن الحكومة البريطانية خرجت مثقلة بالدين ، فأمرت بتجميد الأرصدة الإسترلينية المصرية ، وعجز بذلك أصحابها عن استغلالها مما أثار سخطهم على بريطانيا ، فأيدوا الحركة الوطنية كمساومة منهم على أرصدتهم ، علهم يصلوا بذلك إلى اتفاق يفرج عن أرصدتهم ، كذلك وضعت بريطانيا قيوداً شديدة على الاستيراد من وإلى الموانىء المصرية ، بيد

حكومة مصر عميلة الاحتكار والإقطاع المتحالفين مع الاستعمار البريطانى ، مع الاحتكار البريطانى ، ذو المصالح المشتركة مع الاحتكار والإقطاع المصرى ، وضع هذا الثالوث العدوانى قيوداً شديدة على التجارة الخارجية ، فتحكمت بذلك بريطانيا فى السوق المصرى تحكماً كاملا ، الأمر الذى أثار سخط طبقة التجار المصريين .

كانت العوامل والمظاهر السابقة هى الطريق الذى مهدته الأحداث ، ليسير عليه الكفاح المسلح إلى القنال ، ويسير عليه بسرعة الأحداث المتلاحقة واندفاعها . . .

طلائع المعركة

عم السخط مختلف الطبقات الشعبية ، وتبلور فى إضراباتها الاقتصادية التى انتشرت فى أواخر الحرب وأعقابها ، فقد أضرب عمال مختلف المصانع والنقل المشترك مطالبين بزيادة أجورهم وتخفيض ساعات العمل وبعض الضمانات المعيشية ، كما أضرب المعلمون ونظار ومعاونو المحطات وخريجو الجامعات بشتى المصالح الحكومية ، وكذا أضرب الممرضون كما أضرب كونستبلات وضباط البوليس .. أضربت كل هذه الطوائف مطالبة بحقها فى الحياة ، وبذلك انتشرت إضرابات الفئات الشعبية من أجل حقوقها الاقتصادية المهدرة والمسلوبة . وهذه الإضرابات فى حد ذاتها ، لم تكن أكثر من تعبير صريح عما كان يضطرم فى نفوس جماهير هذه الطوائف من سخط وسخط شديد . وقد قوبلت كل هذه الإضرابات من الطبقات المعادية الحاكمة بمختلف صنوف الكبت والإرهاب ، وببعض الحلول الجزئية المؤقتة ، مما زاد فى شدة سخط هذه الطوائف التى أصبحت ترى فى الثورة على النظام الحاكم وسيلة لحل مشاكلها الاقتصادية ونيل مطالبها الحيوية ، هذا وقد ربطت تلك الجماهير الساخطة الغاضبة مشاكلها هذه بالاستعمار البريطانى كأول وأقوى حائل بينها وبين مطالبها الاقتصادية الهامة ، وأنه لولا جعله من مصر بقرة حلوباً تدر على أصحاب الاحتكارات بلندن السمن والعسل ، لولا استغلال بريطانيا لموارد مصر ، لتوفرت ثرواتها

لأهلها . ولأمكن لمواطنيها تنمية هـذه الموارد ولعم الرخاء البلاد . وبالتالى لتحققت حاجات الجماهير المعيشية . ، من أجل ذلك سارت القضية الوطنية ومطالب الجماهير الاقتصـادية جنباً إلى جنب عقب الحرب العالمية الثانية .

وقد صحب الإضرابات الاقتصادية السابق ذكرها ، مظاهرات شعبية تطالب بالتحرر الوطنى ، وما أن أهل عام ٤٦ ، حتى كانت الحركة الوطنية قد بلغت فى ثوريتها أقصاها ، إذ تكونت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وقادت هـذه اللجنة الجماهير الشعبية فى معركة الجلاء ، وكان يوم ٢١ فبراير من هذا العام ، يوم الجلاء ، اليوم الذى أضربت فيه مصر كلها استجابة لنداء قيادتها الثورية الجديدة من العمال والطلبة والذى اعتدت فيه البربرية البريطانية على جماهير الشعب العزلاء بسيل من الرصاص حين بلغ موكبها السلمى ميدان التحرير بالقاهرة حيث كانت تكمن ثكنات قصر النيل ، قلعة الاستعمار العاتية . . وراح ضحية هـذا العدوان أربعة وثلاثون شهيداً ومائة وخمسين جريحاً ، يحتفل بذكراهم كل عام شباب العالم الديموقراطى تحية منهم لكفاح الشعب المصرى من أجل التحرر ، وقد أخذت ثورية الجماهير أثر ذلك تشتد يوماً بعد آخر وتسير بالحركة الوطنية قدماً ، رغم قوى الإرهاب ومختلف المؤامرات التى كان يعمد إليها بين حين وآخر ثعالبة الاستعمار وحلفاؤه من العناصر الرجعية والانتهـازية ، وخلال ذلك قامت حكومات وسقطت حكومات أمام شدة المد الثورى للجماهير ، ووعيها

المتزايد ، وإن كانت هذه الحكومات قد انحصرت فى طبقتى الإقطاع والاحتكار .

ومنذ انتهاء الحرب وبريطانيا تحاول أن تضلل الجماهير بعقد معاهدة جديدة تربط مصر بها وبمشروعاتها الحربية ، بدلا من معاهدة ٣٦ التى احترقت ورقتها وأصبحت مكشوفة تماماً ، ولكن كل محاولاتها ومحاولات حلفائها من حكام مصر فى ذلك الوقت ذهبت هباء ، وكان آخرها مشروع معاهدة صدقى — بيفن ، فى أواخر عام ٤٦ ، الذى حاول صدقى أن يعرضه على الشعب ، ولكن الجماهير الثائرة الواعية أطاحت بحكومته ومعاهدته معاً ، وكانت الجماهير فى ثوريتها نارية متطورة ، فأخذت تنادى بسقوط المفاوضات ونعتتها بالخيانة أو على الأقل طريقها الذى يفتحه الانجليز أمام حكومات مستعمراتهم التى تحاول شعوبها التخلص من براثنه ، كما تبنت الجماهير شعار « الجلاء بالدماء » ، وظهرت خلال ذلك بعض الجمعيات السريه المتطرفة عمدت إلى اقتناص الجنود الانجليز بالرصاص والقنابل فى شوارع القاهرة والاسكندرية وبذلك وضح إصطدام عوامل الثورة فى الجماهير ، وأصبحت الأمور تنبيء بثورة مسلحة ، وأصبح واضحاً أن خطوة الجماهير التالية هى تحقيق الجلاء بالدماء .

وقفت بريطانيا بخبرتها الاستعمارية العتيقة تفكر فى القضاء على الحركة الوطنية التى تعمل على اقتلاع نفوذها من مصر واجتذاذ حلفائها وعملائها من أجهزة الحكومة ، وكانت خبرتها القديمة بالمستعمرات

وتمرسها بالحركات الثورية التي نشبت ضدها ، كانت هذه الخبرة تحذر من الإلتجاء إلى وسائل العنف والجماهير فى عنفوان ثوريتها ، فإن ذلك لايعن سوى تضاعف المقاومة الوطنية وإشعال الثورة ، كما كانت خبرة عتاة الاستعمار تنصح بالإلتجاء إلى المؤامرة لتبديد ثورية الشعب ومن بعد ذلك تأتى وسائل العنف والكبت ، وبينما كانت الجماهير تسير بالقضية الوطنية نحو تحقيق الجلاء بالدماء ، نحو الكفاح المسلح إذ بالجيوش البريطانية تجلو عن القاهرة والاسكندرية وتستقر على أرض القنال ، بعيدا عن استفزاز المشاعر الوطنية للجماهير ، وتتم بذلك أولى خطوات المؤامرة التى يأتى من بعدها عملية تخريب قيادة الجماهير ، فيدب خلاف لا مبدئى بين أعضاء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وتنشق على نفسها ويسدل الستار عليها بخروج ممثلو الإخوان مصر الفتاة ، الحزب الوطنى ، بإيحاء قادتهم الذين كانوا فى حلف مع حكومة ذلك الوقت ، حكومة الإحتكاريين والإقطاعيين المتحالفين مع الاستعمار ، حكومة السعديين والدستوريين برئاسة زعيم الإحتكار اسماعيل صدقى ، كما تكونت لجنة أخرى من العناصر الرجعية لتضليل الجماهير وخدمة الطبقة الحاكمة وحراسة النظام ، تلك هى اللجنة القومية وخلال ذلك ظهر فجأة شعار الإلتجاء إلى مجلس الأمن كى تشكو إليه مصر عدوان بريطانيا وتطلب منه إجلاء قواتها عن أراضيها ، وإلى أن يحدث ذلك ، على الجماهير أن تلزم الهدوء وتكف عن التظاهر .

وطلعت صحف الحكومة وسائر صحف الإقطاع والاحتكارية

والصحف الاستعمارية بحملة متواصلة بتأييد هذا الاتجاه ، كما ساهمت في ذلك بعض الهيئات الصفراء والعناصر الانتهازية موحية إلى الجماهير الثقة في مجلس الأمن وأن من مقاعده ستحصل مصر على الحرية ويجلو الغزاة ..! ، وقد تجاهلت كل هذه الهيئات والصحف طبيعة مجلس الأمن الذي تسيطر عليه قوى الاستعمار الأنجلو أمريكى ، ولكن نداء الهدوء لحين نظر قضية مصر فى مجلس الأمن ، لم تكن لتلقى قبولا إذا لم تحط بدعاوى تخديرية فقيل للجماهير « أنه إذا لم ينصفنا مجلس الأمن ، لم يعد أمامنا سوى الثورة » ، وتخدرت الجماهير التى افتقدت قيادتها ، فتوقفت مظاهراتها وهدأت ثوريتها ، وفى مفهومها استئناف معركتها حال فشل طريق الشكوى فى تحرير مصر ، حال خسارة قضيتنا لدى قضاة مجلس الأمن ، هذا وقد أكد النقراشى الذى كان قد خلف صدقى فى منصب الرئاسة على نفس الوزراء ، نفس الحزبين الحاكمين ، أكد المطالب السابقة خلال عرضه قضية بلاده على أعضاء مجلس الأمن إذ قال : « ولا أستطيع أن أكبح جماح الثورة فى مصر إذا ما عدت إليها دون قرار منكم بجلاء جيوش بريطانيا عن القنال » ، وهو فى ذلك كان صادقاً ، وكان أيضاً ديماجوجياً بارعا ، فقد كان يحمل فى جيبه الورقة التى سيضعها وحلفاؤه على مائدة اللعب بالقاهرة ، فقد عاد إلى مصر تسبقه أنباء الفشل عاد وفى انتظاره مؤامرة كبرى كانت القوى الاستعمارية قد أعدتها وأتقنت إعدادها ، وكان عليه أن ينفذها ، فقد برزت فجأة مشكلة فلسطين وبشكل إثارى بل جنونى ، انطلقت

كل الصحف الكبرى وجميعها فى قبضة الاحتكار والإقطاع ويغذى بعضها الاستعمار ، انطلقت هذه الصحف تدعو لإنقاذ فلسطين بالحرب ، ومع هذه الصحف كانت محطة الإذاعة وأبواق جماعة الإخوان المسلمين تدعو للحرب !

ولم تلبث الجماهير حتى كانت مشاعرها قد شحنت بحمى عنصرية هوجاء للحرب فى فلسطين ، وتكهرب الجو ، وانشغلت الأذهان بهذه الحرب التى أعلنت فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ومعها قانون إعلان الحكم العرفى على مصر ! وتلك هى المؤامرة التى دبرها الاستعمار ورحب بها الإقطاع وقام على تنفيذها حبا فى الغزو وطمعا فى التوسع ، كما كان يرى الملكان فاروق وعبد الله ، تلك هى المؤامرة ، فبينما كانت الإذاعة تعلن على المواطنين مراسيم الحرب والحكم العرفى كان رجال البوليس السياسى يقبضون على العناصر الوطنية وقادة الحركة الثورية وأودعوهم المعتقلات جنبا إلى جنب مع بعض الصهيونيين الذين قبض عليهم ذراً للرماد فى العيون ! وقد قامت الحكومة على الفور بفرض الرقابة على الصحف ومنع الاجتماعات السياسية لخصومها السياسيين ولغير أحزابها وحرمت التظاهر وقيدت الحريات بسلاح الحكم العرفى وباسم خطر الحرب فى فلسطين ، ولم يكن يسمح بنشر أى مقال أو مجرد نبأ عن القضية الوطنية ومجرياتها ، وكل من كان يحاول رفع صوته ضد الاستعمار ، كانت السلطات تلقى به فى بطون المعتقلات التى بلغ تعداد نزلائها بعد عام واحد من إنشائها أربعة آلاف مواطن !

وسريعا ماأدرك الشعب حقيقة حرب فلسطين . إنها لم تكن أكثر من مؤامرة رخيصة على كفاحه ضد الاستعمار ومن أجل حقه فى الحياة عرفت الجماهير أن المؤامرة عملت على حرف ثوريتها عن مجابهة الغزاة إلى خطر مصطنع فى فلسطين وكذا لشغلهم عن الكفاح لتحقيق مطالبهم الاقتصادية ، فازدادت عوامل السخط وتضاعفت نتيجة لمغامرة الحرب ذاتها ، فقد شحذت الحرب حدة الأزمة الاقتصادية بما تطلبته من نفقات انتزعت من ميزانية الدولة ، من أموال الشعب الفقير . فقد بلغت هذه الأموال فى عام واحد مائة وخمسون مليونا من الجنيهات وكذلك شاهد المواطنون بشاعة جرائم الخيانة والسرقة والغش التى ارتكبها كبار القواد خلال الحرب ، كما عرفوا فداحة الخسائر التى أصابت عن عمد إخوانهم بالميدان ، أدركت الجماهير هذه المؤامرة وشعرت بزيادة عبء الأزمة الاقتصادية فوق كاهلها ، وسار الحال من سيء إلى أسوأ ، فقد كانت السنوات التى بدأت فى أواخر ٤٤ سنين كبت وإرهاب وإرهاق للشعب فى حرياته السياسية وحاجياته المعيشية ، سنوات حكم الحزبين المؤتلفين ، حكم السعديين والدستوريين فقد ساروا بالبلاد على هذه السياسة حتى أوشك عام ٤٦ على الانتهاء وأصبحت الظروف المصرية كلها مقدمة لانفجار شعبي خطير ضد الاستعمار ونظام الحكم جملة واحدة ، ضد الانجليز وحلفائهم من الحكام المصريين المستهترين بمصالح الشعب ، ذوى المصالح المتناقضة مع مصالحه ، أصبحت الأحداث السياسية والإقتصادية تنبيء بثورة

شعبية تطيح بأعداء الشعب جملة واحدة ، وفى كلمة ، أصبح نظام الحكم بمصر مهدداً بالإنهيار والسقوط .

أدرك الاستعمار هذه الحقيقة ، فأعد خطته الجديدة للمحافظة على كيانه وحلفائه ، فقد أصبح النظام فى حاجة إلى من يبدد ثورية الجماهير ويخدرها ويعجل بإبرام معاهدة فشل الجميع فى إبرامها خلال السنوات الماضية .. معاهدة تؤكد استقلال مصر وسيادتهـــا وجلاء قوات الاحتلال على صفحات بنودها ويستقر الاستعمار من خلف أستارها ، كما حدث عام ١٩٣٦ ، ولم يكن أصلح لهذه المهمة من الوفد ، فهو وحده الذى تؤيده كثرة من الجماهير ، وهو الذى ظل بعيداً عن الحكم طوال الخمس سنوات الماضية معارضاً الحكومات الكريهة إلى الشعب مما رفع من أسهمه لدى الجماهير ، وهو الوفد الذى سبق أن وقع معاهدة ٣٦ وأمكنه أن « يبلعها » للشعب « كمعاهدة شرف واستقلال» ليس هناك حصان للعربة سوى الوفد .. كان ذلك منطق الاستعمار ومؤامرته الجديدة ، فأقال حكومة السعديين والدستوريين فى أواخر عام ٤٩ حيث أمر الملك إبراهيم عبد الهادى بالإستقالة ، وتألفت وزارة حسين سرى لتجرى انتخابات كانت نتيجتها معروفة مقدما ، فلم تكن هناك أحزاب شعبية تعمل لصالح العمال والطبقات الكادحة ، فكان على الناخبين أن يختاروا بين السعديين والدستوريين والإخوان وبين الوفد ، ولم يكن أمامهم سوى الوفد الذى حصل على أغلبية المقاعد البرلمانية ، فتولى الحكم .

قصة إلغاء المعاهدة

وبعودة حكومة الوفد ، عادت البرجوازية من جديد إلى الحكم ، عاد الوفد ممثل البرجوازية وخادم الاحتكار والإقطاع إلى حكم البلاد ، البرجوازية التى ضربت بمصالح الجماهير عرض الحائط فى ثورة ١٩ ، وتخلت عن أهداف الثورة ، ثم هى التى خانت من بعد ذلك الشعب خيانة صريحة بعقدها مع الاستعمار معاهدة ١٩٣٦ .. ولم تكد حكومة الوفد تستقر فى الحكم ، حتى ظهرت المفاوضات مرة أخرى على مسرح السياسة المصرية بعد أن كانت قد اختفت بعيداً عن المسرح خلال الثلاث سنوات الماضية ، فقد استأنف الوفد مفاوضة الإنجليز بمجرد توليه الحكم . وبينما أطلقت الحكومة سراح المعتقلين السياسيين ، نجدها تماطل فى إلغاء الحكم العرفى ، إلا أنها لم تستطع إلا أن تلغيه أمام ضغط الجماهير ، وسبق ارتباط حزبها خارج الحكم بضرورة إلغائه ، ولكنها عمدت إلى استبدال الأحكام العرفية الملغاة بقوانين مقيدة للحرية ، فتقدمت إلى البرلمان بمشروع قانون المشبوهين السياسيين تشرع به الاعتقال ومشروع قانون تقييد الصحافة والجمعيات ، إلا أن الشعب الذى تخلص من نير الحكم العرفى ، هب يقاوم هذه القوانين الرجعية ، واضطرت الحكومة أن تسحب مشروعات هذه القوانين من البرلمان خشية الانفجار . والتفت الوفد إلى القوى الاستعمارية ، فعمل على إرضاء الاستعمار الأمريكى الزاحف على الشرق الأوسط ، فأبرم اتفاقية النقطة الرابعة فى يونيه ١٩٥٠ ، ولم يمض عليه بالحكم

سوى خمسة شهور ، وقام يؤدى خدمة للاستعمار البريطانى فتطوع بتنفيذ أخطر مشروعاته العدوانية بالشرق الأوسط ، فعمل على تكوين حلف الضمان الجماعى ، وهو حلف رجعى عسكرى عدوانى ، لمصلحة الاستعمار البريطانى ، وبعد أن قدم هذه الخدمات إلى الاستعمار ، عمل على إرضاء الإقطاع ، فأصدر القوانين التى تزيد من قبضة الإقطاعيين على الأرض وتزيد من استغلالهم للفلاحين ، كما أطلق يد القصر ، ممثل الإقطاع ، وعمل على التقرب إليه على حساب الشعب ، فزاد إرهاق الفلاحين سيما أولاء الذين يعملون بتفاتيش الملك وكبار الإقطاعيين ، كما زاد إرهاق سائر أفراد الطبقات الكادحة .

وقد بدا الإسراف الشديد فى إقامة تماثيل للعائلة المالكة وفى تجميل القصور الملكية ونزع ملكية بيوت المواطنين حول هذه القصور والتماثيل وتشريد أصحابها ، كما بدا ذلك الحمق فى إرضاء القصر وتملقه فى التبذير على شتى مظاهر الأبهة الإقطاعية . . حتى أنه قد بلغ ما أنفق على تزيين اليخت الملكى المحروسة مليوناً من الجنيهات .. كل هذه الأموال انتزعتها حكومة الوفد من ميزانية الدولة .. من أموال الشعب ..! وكذلك عمدت حكومة الوفد إلى العبث فى بورصة القطن لصالح البيوت الاحتكارية ورجال القصر من سماسرة هذه البيوت ، وقام بخدمة الاحتكار بأن حقق لأضخم مؤسسات الاحتكار المصرى ، مؤسسات عبود كثيراً من المزايا وأسبغ عليها غير قليل من الإعانات ، كما منح الاحتكار الأجنبى امتياز استغلال البترول فى مناطق شاسعة جديدة بالصحراء الشرقية .

أما عن التجار ، فقد تمكن الوفد من إقناع حكومة بريطانيا بالإفراج عن بعض ما لهم من أرصدة إسترلينية ، كما خفف من قيود الاستيراد والتصدير ، وكذلك عمل الوفد على إرضاء الطوائف الشعبية فزاد من مرتبات الموظفين بعض الشيء بما سماه الإنصاف . كما رفع من أجور عمال المصانع الحكومية . ووسع من مجانية التعليم الجامعى وجعل التعليم الثانوى والابتدائى مجاناً للجميع .

افتتح الوفد عهده بتوزيع هذه الخدمات على مختلف القوى ليضمن بقاءه فى الحكم ، وهو فى سبيل ذلك كان دائماً يحاول التوفيق بين هذه القوى المتصارعة ، التوفيق فى خدمة هذه القوى المتناقضة ، وكان إذا ما احتدم الصراع وتحرجت الأزمة ، يفضل خدمة الطبقة التى يمثلها دون سواها ، فيخدم البرجوازية وحلفائها ويضرب من دونها ، على أن أهم مشاكل الجماهير الاقتصادية بقيت كما كانت على حالها قبل تولى الوفد الحكم ، فقد ظل الغلاء يمزق الطبقات الكادحة وظلت الأسعار عند أرقامها القديمة لصالح البرجوازية والاحتكار المحلى والأجنبى ، كما تفاقمت البطالة وتعدت العمال إلى المثقفين ، فعاود السخط الجماهير التى رأت فى إقدام الحكومة على المفاوضات ، رجعة بالقضية الوطنية إلى ماقبل عرضها على مجلس الأمن عام ١٩٤٧ . هذا وقد كان لإلغاء الأحكام العرفية أثر بالغ فى بث الوعي الشعبى ، فقد نشط الكتاب الديمقراطيون ، فغذوا الجماهير بكتاباتهم الوطنية الديمقراطية ، سواء فى كتب أصدروها ، أو بمقالات فى الصحف اليومية والأسبوعية

إذ انطلقت الأقلام الحبيسة من عقالها ، انطلقت تكتب للجماهير عن حقوقها والمظالم التى تعانيها ، انطلقت تكتب عن ذلك بعنف ووعى ، وتناولت هذه الأقلام شخص الملك الذى كان مصونا لا يمس بنص الدستور ، ولم تبال بتقديم أصحابها للمحاكمات والزج بهم فى السجون ، فقد خاضت هذه الأقلام معركة توعية الجماهير وإثارتها وتعبئتها وشحذها ضد الاستعمار والاحتكار والإقطاع ، ضد النظام الحاكم وتهيئتها للثورة عليه ، خاضت هذه الأقلام المعركة بإصرار وصلابة فائقين ، وظهر إلى جانب هذه الصحف والكتب العلنية ، صحف ونشرات سرية ، هاجمت النظام صراحة وبأقسى ما يمكن أن يتصور من عنف وإثارة وموضوعية ، سيما جرائم القصر وخيانات الملك وجنايته على الطبقات الكادحة ، كذا كشفت تهالك حكومة الوفد على الاستعمار فى المفاوضات ، فثارت الجماهير على الحكومة هاتفة بسقوط المفاوضات ، وجابهت الجماهير الثائرة وزير الخارجية أثر عودته من لندن عقب انتهائه من مفاوضة حكومة بريطانيا ، وهتفت فى مواجهته بسقوط المفاوضة وأنها لأكثر من مساومة وخيانة ، وناقشته الحساب فى مظاهرة الجامعة بوزارة الخارجية ، وقد عمت المظاهرات الشعبية مصر ضد المفاوضة هاتفة بسقوطها ، فلم يسع الحكومة إلا أن تعلن وقفها ، وقطعت مفاوضاتها مع حكومة لندن ، وبذلك أسقطت الجماهير مفاوضات صلاح الدين — بيفن وأدت مؤامرة فرض معاهدة جديدة ولم تكن قد تعدت بعد طورها الجنينى .

وعلى أثر قطع المفاوضات ، نادت الجماهير وصحافتها الوطنية العلنية والسرية ، بإلغاء معاهدة ٣٦ ، وكافحت فى سبيل ذلك بشتى صور الكفاح من المظاهرات والمؤتمرات الشعبية والإضطرابات والإعتصام ، وكان يتخلل ذلك كله الحملات النارية بالصحافة الوطنية ضد معاهدة ٣٦ وضرورة إلغائها ، وبجانب هذه الثورة الشعبية على معاهدة ٣٦ إنتشرت إضرابات العمال وطوائف الموظفين من أجل مطالبهم الإقتصادية ، وكانت مصر خلال عامى ٥٠ — ١٩٥١ ميدانا يضطرم بالصراع ويموج بالكفاح ، كفاح من أجل التحرر من الاستعمار والحصول على الحقوق الديمقراطية . وكفاح ضد الإقطاع ، فقد أضرب الفلاحون عن العمل فى أرض عتاة الإقطاعيين ، ولى العهد السابق والبدراوى عاشور ، مطالبين برفع أجورهم وخفض الإيجارات وحين استعان الإقطاع بقوات الدولة لقهر تمرد الفلاحين ، خاض هؤلاء مع جنود هذه القوات ، معارك مسلحة سقط فيها عدد غير قليل من الشهداء وزج بالكثيرين فى السجون ، واضطرت الحكومة أن تسارع إلى إطلاق سراح من قبضت عليهم لتهدئة الحالة إذ تفاقمت ثورة الفلاحين وانتقلت الاضطرابات إلى فلاحى بعض التفاتيش الكبرى ، وتجددت نفس المعارك وسالت دماء ، وهاجت الخواطر لدى الوطنيين بالقاهرة احتجاجا على وحشية قمع إضرابات الفلاحين ، وبذلك ظهر على مسرح السياسة المصرية كفاح الفلاحين ضد الإقطاع ، وكفاح الشعب ضد سيد الإقطاع الملك السابق ، كفاح واضح ومقاومة صريحة لنفوذه .

كذلك تبلور فى الميدان كفاح العمال من أجل حقوقهم ، كفاح الطبقات الكادحة من أجل الخبز ، كفاح ضد البطالة وكفاح من أجل السلام ، كفاح فى كل ميدان ، فالجماهير مندفعة تكافح فى كل ميدان والصراع الطبقى على أشده ، وأصبحت مصر بذلك مرجلا يضطرم بعوامل الثورة التى لاحت فى الأفق ، ثورة ضد الاستعمار ، الاحتكار ، الإقطاع ، ثورة ضد النظام جميعه ، ثورة شعبية ديموقراطية تحررية .

أمام هذه الظروف من مقدمات الثورة ، شعر الاستعمار والملك بضعف الوفد أمام الجماهير ، واستقر الرأى على إقالة حكومة الوفد واستدعاء حكومة انقلابية تضرب الحركة الوطنية وتبطش بالجماهير وتقضى على تحركاتها وتقمعها ، وكان الملك يصطاف فى دوفيل بأوروبا ، فطار ستفنسن السفير البريطانى إلى حيث التقى بالملك ورسم معه خطوط الخطة الجديدة : يقوم الملك بإقالة حكومة الوفد عقب عودته إلى مصر ، يقيلها بدعوى انتشار الفساد وفشلها فى توفير الغذاء والكساء للشعب ، وعاد السفير البريطانى إلى قصر الدوبارة بالقاهرة ، وفجأة طالعت صحيفة القصر المفضلة (أخبار اليوم) على القراء بحملة شديدة متواصلة على حكومة الوفد : « الحكومة التى نشرت الفساد وفشلت فى توفير الغذاء والكساء للشعب » ، وكان الشعب يجهل ما دبر له فى دوفيل ، إلى أن حضر فجأة إلى القاهرة المستشار الصحفى للملك وأحد خاصته المقربين (كريم ثابت) والذى كان على صلة خفية وثيقة بسكرتير الوفد فؤاد سراج الدين ، والذى كان أيضاً على خصومة مع زعماء الحزب السعدى ، فأسر الرجل لصديقه سكرتير الوفد بتفاصيل ما دار

فى اجتماع دوفيل ، حيث كان ثالث الحاضرين فى الاجتماع المذكور ولم يشأ أن يرسل إلى سراج الدين تفاصيل ما دبر لحكومته بالبريد وفضل أن يطير إلى القاهرة ليفضى بنفسه بأسرار المؤامرة ، ولم يلبث أن عاد بعد ذلك بساعات إلى سيده فى دوفيل .

وبعد أيام عاد الملك إلى مصر والجماهير لا زالت فى ثوريتها وتزداد حدة يوماً بعد آخر ، وعلى رأس شعاراتها الوطنية إسقاط معاهدة ٣٦ وإعلان الكفاح المسلح ضد الغزاة وضد الاستغلال ، ورسم زعيم الوفد وسكرتيره خطة مضادة لخطة الملك والسفير تتلخص فى إلغاء المعاهدة ، وتكتما ما اعتزما حتى على زملائهما الوزراء وأعضاء الوفد حيطة منهما فى عدم تسرب الأنباء إلى الملك فيسارع بالإقالة ، وبعد ظهر يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، قصد رئيس الوزراء مصطفى النحاس إلى القصر مطالباً الملك بتوقيع مراسيم قوانين إلغاء معاهدة ٣٦ وكانت مفاجأة أذهلت فاروق ، ولما تردد فى توقيعها طالبا مهلة ولو ليوم واحد بزعم دراستها ، هدده النحاس بإعلان استقالة حكومته استقالة مسببة برفض الملك التوقيع وذلك فى جلسة برلمان ذلك اليوم وأصر النحاس على توقيع المراسيم على الفور ، وكرر تهديده بالاستقالة المسببة ، وأسقط فى يد الملك ، فلم يسعه إلا أن يوقع مراسيم قوانين إلغاء المعاهدة ، وانتقل النحاس من القصر إلى البرلمان ، حيث فوجىء النواب برئيس الوزراء يعلن على العالم قرار إلغاء حكومة مصر معاهدة ٣٦ المصرية البريطانية ، وبارح قاعة المجلس بين تصفيق النواب

العاصف الذى كانت تنقله إلى جماهير الشعب موجات الأثير ، فقد حرص رئيس الوزراء على إذاعة خطابه البرلمانى بإلغاء المعاهدة ، وبذلك نجح الوفد تماما فى إفساد خطة دوفيل .

رمى الوفد بإلغاء المعاهدة إلى الضغط على الملك ليطيل أمد بقائه فى الحكم وكذا ليكسب تأييد الشعب ويخدر الجماهير ويحرف تيارها الثورى إلى اتجاه واحد هو الاستعمار وحده دون سائر الميادين والجبهات التى كانت تضرب فيها الجماهير ، وبذلك ينجو النظام من ثورة الجماهير ، وفى غمرة هذا التخدير ، يقوم بمساومة الإنجليز ويبرم معهم معاهدة جديدة ، تنال فيها البرجوازية مكاسب أكثر من تلك التى كفلتها لهم معاهدة ٣٦ ، وتحل مشاكل ما بعد الحرب ، ومن وراء هذه الخطوات يضمن تقوية أجهزة الحكم المصرى والمحافظة على النظام الحاكم بتأييد الاستعمار وتقوية جبهة الاستعمار ، الاحتكار ، الإقطاع وتتولى عقب ذلك ضرب التحركات الثورية للجماهير ، الجماهير التى كانت تسير فى طريقها نحو قلب نظام الحكم ، كان محور سياسة حكومة الوفد إذن هو الاحتفاظ بالحكم فى أيدى البرجوازية بعد أن كان يتهددها حظر زوال السلطان عنها إلى الأبد ، زواله بثورة العمال والفلاحين وسائر جماهير الطبقات الكادحة ، ويؤيد قولنا هذا ، أنه عقب إعلان إلغاء المعاهدة دبرت حكومة الوفد مظاهرة ١٤ نوفمبر ١٩٥١ ، التى كتلت الجماهير الشعبية خلفها وأسرعت من بعدها إلى فتح باب المفاوضات مع الانجليز من جديد ، إلا أن الأحداث السريعة

كانت قد لغمت كل الطرق المؤدية إلى لندن ، فقد فشلت المفاوضات مرة ثانية ، حيث كانت معركة القنال قد قطعت أولى خطواتها وعجزت الحكومة عن وقف هجمات الفدائيين على معسكرات الإنجليز ، كما كانت ثورية الجماهير قد انطلقت من ثغرة إلغاء المعاهدة كالسيل الجارف والشعور العدوانى لبريطانيا قد تفاقم ، وعمت الجماهير موجة جارفة من الكراهية لبريطانيا والكفاح لتطهير مصر من جنودها ونفوذها وبدأت معركة الكفاح المسلح وتحقق بند واحد من خطة الوفد وهو صرف ثورية الجماهير نحو هدف واحد : نحو الاستعمار فقط دون سائر الأهداف ، دون الإقطاع والاحتكار وحكم البرجوازية ، دون النظام الحاكم ، وقد ساهم مع حكومة الوفد فى ذلك الإتجاه بعض الانتهازيون والرجعيون ، فحين سارت المظاهرات الشعبية بشوارع العاصمة وميادينها ، هاتفة بسقوط الانجليز والملك معاً ، فى الوقت الذى كانت فيه المعارك المسلحة تدور فى القنال بين الفدائيين والانجليز قام بين الجماهير قادة الإخوان المسلمين وبعض الانتهازيون يستنكرون التعرض للملك وينادون بقصر الكفاح على جبهة واحدة ، ضد الاستعمار وحده ، وكذلك انطلقت بعض الصحف تروج للاتجاه السابق ، وبالفعل أمكن دفع ثورية الجماهير ضد القوات الانجليزية وحدها (مؤتمرات طلبة جامعة القاهرة نوفمبر — ديسمبر ١٩٥١ ، جريدتى الملايين وآخر لحظة) .

أما كيف بدأت معركة القنال ؟ ، وكيف سارت ؟ ، ثم كيف توقفت أو فشلت ؟ ، فهذا ما نتحدث عنه فى الصفحات التالية .

كلمة الشعب

أعلن مصطفى النحاس إلغاء معاهدة ٣٦ تحت قبة البرلمان مساء ٨ اكتوبر ١٩٥١ قائلا : « من أجل مصر وقعت معاهدة ٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها » . وانصرف من البرلمان بعد أن أودع سكرتاريته مشروعات قوانين إلغائها ... إنصرف وسط عاصفة قاصفة من التصفيق والحماس الوطنى ، سواء من النواب أو الجماهير التى كانت تنصت لخطابه عبر الأثير فى جميع أنحاء مصر . . ومن بعد ذلك قفل عائداً إلى الاسكندرية حيث كانت الحكومة بصيفها بيولكلى. وبمحطة القاهرة التف الصحفيون حول رئيس الحكومة التى ألغت المعاهدة ، وسألوه عن الخطوة التالية لإلغاء المعاهدة ، فصرح قائلا : « لقد أدت الحكومة واجبها والكلمة الآن للشعب » ، وكان هذا التصريح هو كل ما أعدته الحكومة من خطوات تترتب على إلغاء المعاهدة .. أدت الحكومة واجبها فى مجرد إعلانها سقوط المعاهدة .. وبقيت كلمة الشعب .. وفعلا كانت الكلمة للشعب .. فما كادت تشرق شمس الصباح حتى كانت المظاهرات قد اجتاحت مصر من أقصاها لأدناها ، هاتفة بسقوط الاستعمار ، وبالكفاح المسلح طريق التحرر .. طريق الخلاص .. وفى مدن القنال ، لم تستطع قوى الشر الاستعمارية أن تشاهد الجماهير الثائرة على استعمارهم ، والمبتهجة بإلغاء معاهدة التسليم الخيانة ، لم تستطع قوى الشر هذه أن تكبت مشاعرها العدوانية

نحو الوطنيين ، فأمرت جنودها بإطلاق الرصاص على المتظاهرين وفى لحظات كان الذين اغتالهم العدوان البريطانى ستة عشر شهيداً فى الإسماعيلية والسويس وأكثر من خمسين جريحاً . ولم تتراجع الجماهير العزل ، بل اندفعت فى غضب الموج الهادر نحو بعض المراكز البريطانية وكان أهمها مركز النافى بالاسماعيلية . التى استولت على ما كان يزخر به من مواد غذائية ثم أضرمت فيه النيران بعد أن فر من كان به من جنود وضباط إنجليز . ولعل فى إقتحام جماهير الاسماعيلية لمركز النافى يرجع أول ما يرجع إلى مواده التموينية التى كان يتخم بها قوات الاستعمار والشعب من حولها يصرخ من الجوع ، ويعانى نقصاً فى مواده الغذائية لقلتها وحدة ارتفاع أسعارها .

بداية الانفجار

كان لهذا العدوان البريطانى أثره السريع فى نشوب المعركة ، فقد كان بمثابة الشرر الذى تطاير إليه مستودع البارود فانفجر على الأثر .. ذلك أن الجماهير ما أن ذاع بينها نبأ شهداء الغدر والعدوان بالقنال حتى تجددت مظاهراتها فى كل مكان بمصر تنادى بالثأر والزحف إلى القنال حيث معسكرات الغزاة . أما أهالى القنال ، فقد أخذوا لفورهم يثأرون لشهدائهم إذ قاموا باقتناص الجنود البريطانيين فى طرقات مدن القنال ، بعد أن أخرج بعضهم ما كان لديه من أسلحة مخبأة ، وبعد أن انتزع البعض الآخر أسلحة بعض جنود بريطانيا ، تلك الأسلحة التى تخصص فى اختطافها من أيدى جنود الامبراطورية ، صبية مدن القنال فى وضح النهار بالطرقات وعلى أبواب المعسكرات ، وكانت هجمات أهالى القنال تلك تكون الشكل الجنينى لمعركة القنال ، وبذلك يمكننا القول بأن المعركة قد بدأت بقتال مجموعات أو أفراد ، بقتال شراذم غير منظمة من أهالى القنال لجنود الاحتلال ، وفى نفس الوقت ، كانت تتوالى اجتماعات تفد من الشباب الوطنى بالفريق عزيز المصرى بالقاهرة يبحثون تنظيم مقاومة شعبية مسلحة . ويعدون الخطة لشن حرب عصابات وطنية على قوات الاحتلال ، ولم تدم هذه الاجتماعات طويلا فقد أختير الفريق عزيز المصرى ، العدو الأول القديم للاستعمار الإنجليزى ، والذى يعمل القادة الاستعماريون لعبقريته العسكرية ألف

حساب وحساب . . أختير الفريق عزيز المصرى بماضيه العملاق فى محاربة الاستعمار وخوض كثير من المعارك الحربية وخبرته السياسية وحنكته بحروب التحرير وحركات المقاومة المسلحة ، أختير لقيادة الحرب التحريرية ضد الغزاة الإنجليز . وكانت الخطة التى اتفق عليها تتلخص فى النقط الآتية :

* تكوين فرق من الفدائيين المتطوعين تنمو تدريجياً حتى تصبح جيشاً بأكمله .

* تقوم هذه الفرق بهجمات يكون بعضها انتحارياً ، على القوات البريطانية فى جميع مراكزها بالقنال .

* يمول الشعب هذه الفرق بالسلاح والذخيرة والعتاد .

* تقوم فرق احتياطية بفرض حصار حديدى حول معسكرات الأعداء لمنع وصول المواد التموينية .

* تنظيم مقاومة سلبية ، لمقاطعة البضائع الإنجليزية وعدم التعامل التجارى مع بريطانيا ، وسحب جميع العمال المصريين من معسكرات العدو .

* تسليح جميع أفراد الشعب رجالا ونساء بالمدن والقرى الواقعة فى القنال وحوله .

كانت هذه هى الخطة التى استقر الرأى على خوض المعركة على ضوئها ووفق خطوطها ، وتكون مجلس لقيادة كتائب التحرير على

الوجه التالى : الفريق عزيز المصرى قائد أعلى — قائد جناح وجيه أباظه قائد عام الميدان . والسادة حسن عزت ، قائد أسراب ، عبد الحميد صادق ، عطية صابر ، عبد الرحمن أباظة ، محامون ، توفيق الملط ، مدرس ، جمال عزام ، عمدة ، مدحت عاصم ، موسيقى ، أحمد أبو الفتح ، إحسان عبد القدوس ، صحفيان ، أعضاء . هذا هو المجلس الذى كان يقوم على قيادة المعركة وتوجيهها وتنظيم تمويلها وشحذ الجماهير لها وتعبئتها للمعركة ، وفى سبيل ذلك بذلوا الجهد الكثير ، جهداً كان يصل ليلهم بنهارهم ، حتى تسير المعركة فى طريق التحرر نحو النصر .

ويلاحظ أن المضمون الطبقى لهم جميعاً ، برجوازية صغيرة ذات الطبيعة الثورية المترددة ، أى أن المضمون الطبقى لقيادة كتائب الفدائيين ، لقيادة ثورة وطنية مسلحة كان من البرجوازية الصغيرة ..! بل إن القوات المقاتلة نفسها كانت فى مجموعها من صغار الطبقة المتوسطة ، من هذه البرجوازية الصغيرة ، وهو أمر سنجد له أثر غير هين إن لم يكن بالغاً فى توجيه مراحل القتال ، حين نتكلم عن أسباب فشل المعركة .

استهلت هذه القيادة عملها بإصدار بيان إلى الشعب وقعه الفريق عزيز المصرى ، دعت فيه الشباب إلى التطوع فى كتائب التحرير ، كما ناشدت سائر الوطنيين بالتبرع لتمويل هذه الكتائب بكل ما يلزمها فى قتالها لقوات الاحتلال ، وعلى أثر صدور هذا البيان ، إنهالت التبرعات من كل مكان بمصر حتى بلغ مجموعها بعد أيام قليلة إثنى وثلاثين ألفاً من

الجنيهات أعلن من بعدها وقف التبرع على القيادة العامة بالقاهرة ،
ووجهت التبرعات إلى فروع هذه القيادة بالأقاليم ، فعن طريق المتبرعين بالأقاليم أمكن تكوين لجان تمثل هذه القيادة ، تكون كل لجنة قيادة صغيرة لإقليمها، تجمع تبرعات وتجند متطوعيه وتقوم على تدريبهم قيادة القاهرة ، ثم تقودهم فى القتال بالقنال ، على أن يكون تمويلهم من إقليمهم ، وخصص المبلغ الذى ورد إلى القاهرة للفرق التى ترسل منها . وطاف عزيز المصرى ومعه صحبه ببعض الأقاليم ، حيث خطبوا فى الجماهير ، داعين إلى تكوين لجانهم والإسراع بإرسال فرقهم ، وقد تكونت لجنة الكفاح الشعبى بمديرية القليوبية جمعت أحد عشر ألف جنيها وافتتحت معسكراً لتدريب متطوعى مديريتهم ، كما تكونت لجنة الكفاح الشعبى بمديرية البحيرة جمعت من مواطنى الإقليم سبعة عشر ألفا من الجنيهات ، وأقامت معسكراً للتدريب فى دمنهور ، وأخيراً تكونت لجنة كفاح مديرية الشرقية ، بلغ مجموع ما أكتتب به الأهالى لتمويلها سبعة وعشرون ألفا من الجنيهات ، وافتتحت هذه اللجنة أكثر من معسكر للتدريب ، وقد زودت هذه المعسكرات بالأسلحة والذخيرة وقام على تدريب المتطوعين متطوعون من العسكريين الوطنيين .

ومما يجدر ذكره ، أن لجان الكفاح الشعبى هذه تكونت خلال معارك القنال ، تكونت وقد غمر أسماع الشعب أنباء معارك القنال التى كان يخوضها فدائيو القاهرة ومدن القنال ، قامت هذه اللجان وتأسست على رحى المعركة ذاتها ، وكانت لجان الكفاح الشعبى بالأقاليم مكونة

من ممثلى صغار التجار ورجال الدين والموظفين الصغار وأصحاب المهن الحرة باستثناء لجنة البحيرة التى اشترك فيها العمال إلى جانب الفئات السابقة ، أى أن المضمون الطبقى لقيادة الفرق الإقليميـة كان من البرجوازية الصغيرة ، من صغار الطبقة الوسطى ، وهى طبقة كما قلنا ذات طبيعة ثورية ، إلا أنها مترددة .

هذه هى المعركة

كانت الخطوات التكتيكية لبدء المعركة ، إصدار البيان السالف ذكره ، ثم إيفاد من يقوم بدراسة المنطقة واختيار مراكز للقتال ، كما كانت الخطة تقضى بأن ينشب القتال فور إصدار البيان ثم ينظم شيئا فشيئا وذلك بازدياد الإمكانيات ووفرة المتطوعين ، وفى ساعات الصباح الأولى من ١٨ أكتوبر ١٩٥١ ، غادرت القاهرة إحدى عربات الجيب ، تقل ثلاثة من الشباب متجهة فى سرعة خاطفة إلى القنال . وبعد جولة خاطفة ما بين معسكرات القوات المعادية ، استقر المقام بالمستكشفين الثلاثة بالصحراء الشاسعة ذات التلال الرملية والصخرية خلف معسكر التل الكبير ، ققفلوا من بعدها عائدين إلى القاهرة واجتمعوا فور وصولهم بالفريق عزيز المصرى حيث أفضوا إليه بنتيجة دراستهم طوال النهار ، وبعد ساعة أو بعض ساعة ، انفض الاجتماع وخرج من منزل القائد العام ، المستكشفون الثلاثة ، توفيق الملط ، كامل العقيلى ، كاتب هذه السطور ، ومعهم أمر بفتح ميدان القرين فى تلك الليلة .

لم يكن هناك سلاح أو متطوعون بعد ، ولا بد من السفر بأى عدد من المقاتلين وبأى سلاح ، وعهد إلىّ بقيادة هذه الفرقة التى كانت لاتزال فى عالم المجهول ، وقدحت ذهنى محاولا تذكر بعض الشباب من الذين على صلة بالسلاح ويلمون ولو ببعض مبادىء استعماله

وقصدت إلى حى الدقى ، حيث يكثر أولاد الذوات المغرمين بحمل السلاح وإطلاق الرصاص على أشجار حدائقهم ، إلا أننى لم أجد منهم أحداً ببيته فى تلك الساعة من الغروب ، وكان على أن أعود بأى عدد من المتطوعين إلى منزل توفيق الملط الذى كان عليه أن يحضر ما تصل إليه يده من سلاح .. يجمعه من هنا وهناك ، وفى ميدان الدقى وقفت انتظر أتوبيس الجيزة لأعود للأستاذ الملط بلا متطوعين ، وفجأة لمحت شابا يتسكع مع بعض صحبه من الذين ذاع صيتهم بين أهالى الحى « كفتوات » صغار ، وطالما تحدث البعض عن أحداث مشاجراتهم وعمليات السطو الصغيرة ، التى كانوا يشنونها على آبائهم ، بالمسدسات ! وأسرعت إلى هذا الشاب وصافحته بحرارة الذى افتقد شيئا بعد طول يأس للعثور عليه ، وعرضت على صاحبنا هذا السفر إلى القنال لمقاتلة الإنجليز وضغطت على أن السلاح سيكون بين يديه وإطلاق الرصاص طوع بنانه ورجوت أن يدعو بعض صحبه إلى التطوع معه ، وقبل الشاب واستأذننى للإنصراف قليلا ثم عاد وفى صحبته آخر ، وعرفا أنهما سيرحلان إلى القنال فى الحال . . ورحبا بذلك كل الترحيب . . فقد كانا من الشباب المغامر الذى طبعت فى نفوسهم أفلام « تومكس » و « رعاة البقر » وسائر بطولات الفيلم الأمريكى الشىء الكثير ، وبعد دقائق كنت والمتطوعان الجديدان فى منزل الأستاذ الملط نتسلم السلاح مدفع أستن قديم . . مسدس براونج . . وثمانين طلقة رقم ٩ ، ومرة أخرى انطلقت عربة الجيب إلى القنال وبها نواة الفرقة الجديدة .

وفى صحراء القرين نزل المقاتلون الثلاثة . وبعد أن ودعنا كل من الملط والعقيلى . . عادا بعربتهما إلى القاهرة . . عربة نقابة سائقى سيارات الأجرة التى تبرعت بها النقابة للمعركة منذ أولى لحظاتها و معها رئيس النقابة الأستاذ العقيلى ليقودها ، وفى القرين ابتلعنا ظلام الصحراء . . وتسترنا به فى عمليات استكشاف المعسكر الكبير الذى أحالته الأنوار إلى ربيعة نهار ، وقد كانت فرقة الاستكشاف هذه غريبة حقا وفريدة فى نوعها ، كنا نخطو من حول المعسكر فى حذر شديد . . تلفنا بين حين وآخر أنوار الكشافات الحربية التى يرسلها حراس المعسكر فى حركة دائرية حول أركانه ، كنا نسير ويدى على زناد المدفع الذى لم أجربه من قبل ولو مرة واحدة . . ويد فتى الدقى على زناد المسدس الذى لم يجربه أيضا . أما الثالث فكان أعزلا من السلاح . . !

على أن الأمور قد سارت فى سلام حتى الصباح ونحن نجوب هذه الصحراء وتتعرف على باب المعسكر البريطانى عن بعد ، وبانتشار شمس الصباح توجهنا إلى البلدة ، وفى أحد المقاهى أمكن بكلمات قليلة تجنيد عشرة من الأهالى البواسل ، كانوا من لصوص المعسكرات المدربين على التسلل إليها وخوض المعارك مع حراس المعسكرات ، وبدأنا ندرس مايمكن أن نقوم به من هجمات . وفى الغروب حضر الأستاذ توفيق وألقى فى الصحراء بخمسة من المتطوعين ، كما ألقى بثلاث بنادق ومائتى طلقة نمرة ٣٠٣ ، عاد من بعدها إلى القاهرة وقد ترك

لى أمراً بشن بعض الهجمات بقصد المناوشة فحسب ، وأعددنا العدة وأحضر متطوعو الأهالى العشرة أسلحتهم وذخيرتهم الخاصة بهم . وحوالى منتصف الليل فوجىء جنود معسكر التل برصاص يطلق نحوهم من خلف المعسكر ، وكانت الخطة التى نفذت فى تلك الليلة هى توزيع الفريق فى نقط متباعدة أمام الجانب الغربى للمعسكر واحتماء المتطوعين بكثبان الرمال ، ثم إطلاق الرصاص على المعسكر ، فقط إطلاق النيران لمجرد الإزعاج ، ورد الانجليز بنيران شديدة استغرقت حوالى الساعة انسحبنا من بعدها إلى البلدة لنجد الأهالى قد تجمعوا فى الأزقة يستطلعون الأمر ، وفى جلسة هادئة مع بعض مواطنى القرين ، أمكن لهم أن يعرفوا كل شىء ، المعركة التى عزم الشعب على خوضها وأهدافها وآثار نجاحها وتطوع على الأثر عشرون من الأهالى البواسل ذوى السلاح الخاص بهم .

وعلى ذكر السلاح الخاص ، فإن بلدة القرين كان يغمرها السلاح الذى انتقل إليهم من المعسكر البريطانى طوال سنوات الحرب وما بعدها ، وبذلك أصبحت الفرقة مكونة من ثمانية وثلاثين متطوعاً ، وزودتنا القاهرة بأربعة بنادق أخرى ومدفعين استن آخرين وبعض المتفجرات والقنابل اليدوية ، وبذلك أصبح سلاحنا سبعة بنادق وثلاثة مدافع سريعة الطلقات وخمسمائة طلقة ، وكان يزورنا من يوم لآخر بعض ضباط الجيش لإعطاء دروس فنية فى السلاح والتدريب على استعماله وذلك خلسة من رؤسائهم ، وتوالت هجماتنا واشتدت عما كانت عليه

من قبل ، إلا أنها لم تخرج عن حد مجرد إزعاج الأعداء . وكان الهدف من معارك القرين هـذه إقلاق راحة الإنجليز وتكبيدهم خسائر فى الذخيرة متوالية حيث اعتاد جنود المعسكرات البريطانية إطلاق ألف طلقة مقابل كل طلقة تصوب نحوهم ، وكذلك كان من أهداف ميدان القرين تدريب المتطوعين على المعارك الحية ، وإطلاق الرصاص على أعدائهم واستقبال ما يطلقه عليهم الأعداء . وكان نتيجة لهذه المعارك المتوالية أن ازداد متطوعو الأهالى حتى بلغ عددهم خمسين مقـاتلا . وذات ليلة حضر قائد جناح وجيه أباظه ومعه عدد من متطوعى مدينة الزقازيق ، مزودين بالسلاح وغير قليـل من المفرقعات .. ، وخلف أسوار مستشفى القرين ، شرح لنا خطة الهجوم وعرف كل من المقاتلين العمل الذى يقوم به فى تلك العملية . وقد كانت زيارة وجيه لنا فى تلك الليلة تطويراً لقتالنا الذى تحول من مجرد إزعاج الأعداء إلى التسلل داخل خطوطهم ، وكانت العملية التى جاءنا قائد الميدان بخطتها تقضى بالتسلل داخل المعسكر ونسف إحدى الورش الصناعية التى يزخر بها معسكر التل ، وفى الواحدة صباحاً ، زحف ثلاثة من المتطوعين إلى المعسكر عبر الأسلاك الشائكة وخلال حقول الألغام ، بينما كمن الآخرون فى الصحراء حول نقط الحراسة والدشم أو الاستحكامات الدفاعية للمعسكر ، ولم يكن على هذه الوحدات أن تطلق نيرانها إلا عقب سماعها انفجار ما تسلل به زملاؤهم ، ففى تلك الساعة تطلق النيران كى تغطى انسحاب المتسللين ، ولـكن الخطة غيرت منها المصادفة ، فقد

عثرت فجأة إحدى نقط الحراسة الداخلية بالمتسللين ، فبادروا جنودها بأن ألقوا على وجوههم بما كانوا محملين به من قنابل حارقة ومتفجرة ، وفتحت الوحدات المحيطة بالمعسكر نيرانها على جنود الحراسة الذين بادلوهم بالمثل وأعلنت حالة الطوارىء بالمعسكر ، وانتشر جنوده خلف السلك الشائك يرمون الصحراء التى تطلق الرصاص . يرمونها بنيران شديدة . وخلال ذلك شاهد المقاتلون المصريون عربة الصليب الأحمر وهى تعدو بجوار السلك الشائك وتوالى دق ناقوسها وتقف لنقل جرحى المعركة من جنود الامبراطورية ، الذين استشاطوا من الغضب فصبوا نيرانهم بجنون على الصحراء وبشدة لم يسبق لها مثيل . ولمدة ثلاث ساعات متوالية تخللتها قذائف مدافع الهاون ..، ومع خيوط الفجر الأولى ، انسحب الفدائيون إلى البلدة دون إصابة واحدة لأى من أفرادها .

ولمستشفى القرين قصة مع الفدائيين ، ذلك أنه يقع على مشارف البلدة على حافة الصحراء وفى مواجهة المعسكر تماما لا يفصله عنه سوى نحو مائتى متر ، فهو يشرف على جميع أنحاء المعسكر فمن يطل من نوافذه يشاهد جميع تحركات جنود الأعداء داخل معسكرهم .. كان موقع المستشفى غاية فى الأهمية لكل من يريد أن يقاتل الإنجليز فى هذه المنطقة ، فلم يكن بدآ من احتلاله ، وقد استشرت فى ذلك وجيه أباظه فأقر احتلاله بعد أن أمر بإحاطته بالألغام ، وفى صباح العملية السابقة قمنا باحتلال المستشفى الحكومى ، واضطر الطبيب

أن ينقل مرضاه إلى مستشفى أبى حماد ، واعتبر نفسه وممرضيه وسائر موظفيه فى عطلة إجبارية وتحول هذا المستشفى إلى قلعة حربية .. نصبت فوقه نقط المراقبة ومن حوله كمائن الحراسة ، ليل نهار ، واتخذناه مقراً لقيادة ميدان القرين . وكم حاولت القوات البريطانية احتلال هذا المستشفى والهجوم على البلدة وأسر الفدائيين ، إلا أنها كانت فى كل مرة تتراجع سريعاً أمام شدة نيران الأهالى ، أهالى القرين الأبطال الصناديد ، الذين كانوا يهبون جميعاً إلى حيث يقاتل الفدائيون يشدون من أزرهم ويذودون عن بلدتهم وهم يرون قوات بريطانيا تتقدم لاحتلالها ، ولكن دائما كانوا يصدونها ويجبرونها على التقهقر إلى معسكرها ، الأمر الذى أطار صواب الإنجليز فصوبوا نيرانهم خلال المعارك التى توالت عقب ذلك ، صوبوها نحو البلدة ، ومن هذه النيران كانت مدافع الميدان . . !

وخلال هذه المعارك ، كان الفريق عزيز المصرى يتردد على الميدان بين ليلة وأخرى ، يعاين القتال فى خط النار ، ويدلى بما كان يرى من توجيهات دفاعية وهجومية ، كما كان يجتمع بالأهالى يشحذ عزائمهم ويلفهم حول المقاتلين ، وكان لذلك أثره السريع فى تطور القتال حيث احتضن الأهالى المقاتلين وأيدوهم بكل ما كان يلزمهم من تشجيع وتأييد وكونوا لجنة شعبية لقيادة وتنظيم كفاح أهالى القرين . وكان بديهياً أن يشتد القتال وتزداد هجمات الفدائيين الذين أصبح أكثرهم من أهالى القرين البواسل ، وفى إحدى هذه المعارك أصيب أحد الفدائيين

فى ساقه برصاص الأعداء ، وقد أثبت الأطباء أنه من النوع الفتاك والمحرم دولياً وهو المعروف باسم رصاص « دمدم » ورغم أن إصابة على رمزى كانت داخل المعسكر ، فقد أمكن لزملائه أن يستخلصوه من داخل الأسلاك ويصلوا به سريعاً إلى مستشفى الزقازيق ، وإن كان ذلك قد كلفهم الكثير من النيران التى اشترك فيها أهالى القرين وبعض جنود وضباط الجيش المصرى الذين أقبلوا على عجل من معسكرهم القريب بأبى حماد وبركات ، أقبلوا بأسلحتهم لنجدة الفدائيين واشتركوا فى صد الإنجليز واستخلاص الفدائى الجريح ، قاتلوا بأسلحتهم الحكومية جنباً إلى جنب مع الفدائيين والأهالى من الفلاحين ، وذلك خلسة من رؤسائهم .

مؤامرات أصحاب المصالح ..!

حين بلغت معارك القرين ، ذاك الحد من العنف ، كان بعض الناس قد أصاب مصالحهم ضرر غير قليل ، ومن سوى الاحتكاريون واللصوص تضار مصالحهم بالتحرر . ؟ ! فقد كان هناك خط أوتوبيس بين الزقازيق وفاقوس ماراً بالقرين ثم معسكر التل ففاقوس ، وقد اضطرتنا ضرورات المعركة إلى أن نغلق هذا الطريق ، ونجعل منه منطقة عسكرية محرمة ، حتى لا يتسرب الجواسيس من وإلى المعسكر عبر هذا الطريق الذى كان يخترق خطوطنا ، فتعطلت سيارات صاحب الشركة الذى كان يحتكر مواصلات النقل بذلك الطريق ، كذلك تضايق كبار التجار الذين توقفت تجارتهم مع القوات الإنجليزية ، فقد أحكم الحصار حول مداخل المعسكرات حتى لا تتسرب إليها أية مادة من المواد التموينية ، وكم ضبط الفدائيون كثيراً من عربات النقل المحملة بالمواد الغذائية فى طريقها إلى معسكرات الأعداء ، فصادروها ووزعوا حمولاتها على المستشفيات والمؤسسات الخيرية ، كذلك أصاب لصوص المعسكرات أضرار بالغة ، فقد كان التسلل إلى المعسكرات أمراً سهلا يسيراً قبيل المعركة ، فلم تكن القوات البريطانية فى حالة طوارىء حربية مستمرة بسبب حرب الفدائيين ، كما كان أغلب الحراس الإنجليز أعوان للصوص وشركاء لهم ، فلما نشب القتال اعتبر الإنجليز أنفسهم فى حالة حرب بمنطقة القنال ، فكانوا يطلقون الرصاص على أى شبح

يقترب من المعسكر حتى يسدوا الطريق على تسللات الفدائيين و يتخلصوا بذلك من عمليات النسف والتدمير داخل معسكراتهم ، فاستحال على اللصوص أن يسرقوا ، وكان لصوص المعسكرات يكونون قوة ضخمة قوامها عصابات كبيرة مسلحة ، تساندها شركات تجارية كبرى بمدن الشرقية و بالقاهرة والأسكندرية ، فقدت أرباحا هائلة كانت تتدفق عليها من مسروقات القوات البريطانية .

أما عن الحكومة ، فقد فزعت من حمل أفراد الشعب السلاح وخوضهم المعارك مع القوات الاستعمارية ، فقد كان ذلك يعنى خطراً مباشراً على النظام الحاكم .

تجمعت هذه القوى التى بدأت فى العمل .. والعمل الصريح ضد المحركة فقد فوجئنا فى صباح ٢٤ أكتوبر بعربة حكومية سوداء تحضر إلى حيث كنا نقيم بالصحراء ، ونزل إلينا من كان بها وهم : مدير الشرقية فى ذلك الوقت أميرالاى صادق الملا ، وحكمدار المديرية ورئيس المباحث وضابطين آخرين ، وطلب المدير التحدث إلى قائد الفريق فتقدمت إليه ودار بيننا الحديث التالى :

المدير — ماذا تفعلون هنا ؟ .

— نقاتل الإنجليز .

— حمل السلاح محظور ويكون جريمة ، ونحن سنتغاضى عن الكثير فأجمع الفرقة وسلمنا السلاح وسنرحلكم إلى القاهرة . !

ـــ الجريمة هي عدم حمل السلاح فى وجه الغزاة . ونحن هنا لا نتحرك بأمرك لدينا قائد هو الفريق عزيز المصرى . فهو وحده الذى يأمرنى ووحده الذى أطيعه .

ـــ الأوامر صريحة ولا داعى أن تضطرنى لاستعمال القوة واستدعاء الجنود لتنفيذ أوامر الحكومة .

ـــ هذه الأوامر مرفوضة وسنقاتل أى قوة تعمل على الحيلولة دون مقاتلتنا الانجليز ، وعد من حيث أتيت .

وكان زملائى قد تجمعوا من حولى فالتفت إليهم وأمرت بتعمير الأسلحة والاستعداد للضرب وتقدمنا نحو المدير شاهرين الأسلحة وطلبنا منه أن يركب عربته ويعود من حيث أتى . وهددنا بإطلاق النار ، وحاول رئيس المباحث التقدم نحونا طالباً التفاهم ، إلا أننا صرخنا فيه بأن يرجع وإلا قتلناه ... وتقدمنا نحوهم والأسلحة مصوبة إليهم وأيدى كل منا على « التتك » ، فلم يسعهم إلا الركوب ، ثم أخذت العربة تسير إلى الخلف والأسلحة فى أثرها ، حتى خرجت من المنطقة الصحراوية وأصبحت فى مدخل البلدة فاستدارت وعادت بركابها من حيث أتوا ، وسريعاً ما أقمنا استحكامات رملية فى مواجهة طريق البلدة ، وكنا من خلفها طوال نهار ذلك اليوم استعداداً لمواجهة احتمالات ما قد يقدم عليه المدير ، وكنت خلال ذلك قد أنبأت تليفونياً الفريق عزيز المصرى بالقاهرة بما حدث فأقرنى عليه وقام بالاتصال بوزير الداخلية محتجاً على تصرف مدير الشرقية وقد استدعى الوزير

المدير وأفهمه أن يتريث قليلا ، ثم عاد الوزير واتصل بالقائد العام وأخبره باستدعائه المدير وأنه قد أنبه على ما أقدم عليه من محاولة القبض على الفدائيين ، والحقيقة التى ثبتت بعد ذلك أن المدير قد تصرف بأمر الوزير ، وأن الوزير قد استدعى فعلا المدير وأنبه على تنفيذه أوامره وذلك بحضور الأستاذ فريد أبو شادى . ويقع المدير فى حيرة حين يقوم بتنفيذ أوامر الوزير التى تتكرر بعد شهر ؛ وحين يفشل فى تنفيذها . وتشتد صيحات الاحتجاج فى القاهرة ينكر الوزير ما أصدر من أوامر . . ! ويقع المدير بين المطرقة والسندان كما كان يحلو له أن يصف نفسه من الوزير والفدائيين . وقد شهد بعض أهالى القرين ما دار بين مدير مديريتهم وبيننا ، فازداد ارتباطهم بنا وارتفع عدد المتطوعين منهم ؛ سيما وقد رأوا ضابط النقطة يسارع إلينا بعد رحيل المدير . ويستنكر ما حدث من رئيسه ويضع نفسه وجنوده فى خدمة المعركة .

وقد استمرت المعارك فى القرين بعد ذلك كل ليلة ، فى نطاق مجرد المناوشات وبعض التسللات .

وخلال ذلك كان يحضر إلى الميدان بين الحين والآخر بعض أعضاء القيادة من القاهرة ، كان جمال عزام ، توفيق الملط مدحت عاصم يحضرون بين ليلة وأخرى لشد أزرنا وربط الأهالى بقتالنا والوقوف على أحوالنا ، أما وجيه أباظه ، فكان يأتى بين ليلة وأخرى وفى جيبه خطط عسكرية للهجوم على المعسكر تنفذ فور وصوله .

وذات صباح حضر لزيارتنا رهط ممن يسمونهم أعيان البلدة

ويسميهم العلم بالبرجوازية .. ، يتوسطهم صاحب شركة السيارات التي أغلقنا طريقها وتوقف عملها . وتكلم الرجل طويلا راجياً فتح الطريق لعربات شركته وعبثاً حاولت إقناعه بأن يضحى قليلا من أجل معركة تخوضها مصر لطرد الانجليز ، إلا أنه لم يكن يهمه بقاء الانجليز بمصر أو رحيلهم وإنما كانت حياته وتفكيره وحواسه تدور حول الأرباح التي توقفت عن خزائنه بتوقف عرباته عن المسير . وقد حاول أن يصل لإقناعي بفتح الطريق بأن مد إلى يده بمائتي جنيه وصفها بالمساعدة ..! عمل الاحتكارى — وقد عجزت حيلته — إلى محاولة فتح الطريق بالرشوة .. ! وكان نصيبه الطرد وتوديعه بما استحق من سباب وازدراء .

أخذت القوى السابقة تعمل بين الأهالى مرتكزة على أن الفدائيين تسببوا فى تدمير بعض بيوت البلدة وأن وجودهم بالقرين فيه تعريض لحياة أهلها للخطر ، على أن أخطر ما كان فى الأمر ، ما قد تسلل داخل صفوف فريق الفدائيين أنفسهم . ذلك أن لصوص المعسكرات كانوا ضمن متطوعى البلدة ولم يستطيعوا أن يؤثروا شيئاً على زملائهم من الفلاحين الشرفاء المتطوعين ، إلا أنهم نجحوا فى التآمر على المعركة بالاتفاق مع بعض متطوعى القاهرة ، والذين كانوا يعيشون بها بلا قيم ولاخلق ..، من الصعالكة الأفاقين الذين كان الفلم الأمريكى مثلهم الأعلى وحلمهم فى الحياة بطولاته الإجرامية .

فذات يوم ، فاجأنى كبير لصوص المعسكر بقوله : « كيف تتركنى

ورجالى هكذا بلا مال ؟ ، كيف نعيش وقد كنا نعتمد على سرقة المعسكر ومنذ حضوركم لم يستطع أحدنا أن يسرق قشة واحدة ؟ ! ونحن نعمل معكم ليل نهار ، سخرة ! مجاناً ! ! لا ، إصرف مرتبات لكل منا وإلا فلا يبق منكم أحد . وارحلوا عن بلدتنا » . ولم يكن أمامى سوى الاستعانة بالأهالى الشرفاء فى قهر هؤلاء اللصوص ، وأعلن الأهالى ، الأبطال أننا فى حمايتهم . ووقف فدائى من متطوعى القرين اسمه عوض عبد الرحمن ، ووضع فوهة بندقيته فى صدر زعيم اللصوص مقسما بالطلاق ليصرعن أى شخص يحاول أن يمس واحداً منا بسوء . كما أعلن أنه قاتل وسيقاتل معنا الانجليز . وأى قوة تحاول أن تحول بيننا وبين قتالهم فإنه كفيل بتدميرها وحرق بيوتها ، وكان لقسم هذا الرجل وصوته يدوى بين بعض الأهالى فى وجه زعيم اللصوص ، كان لقسمه ذاك الأثر الحاسم فى تكييف الجو لمصلحتنا ، ومرت هذه الأزمة بعد أن عرفنا اليد التى أثارتها . يد صاحب شركة السيارات المعطلة . واستأنفنا القتال بعد أن خلت الفرقة من اللصوص . ومرت أيام ، وكانت الطلقات الاحتياطية المختزنة بغرفة « السلاحليك » التى كانت منذ أسابيع غرفة عامل تليفون المستشفى .

كانت هذه الطلقات فى تناقص مستمر ، ولم يجد تغيير ديدبان الذخيرة والمفرقعات المنوط إليه حراستها ، لم يجد تغييره نفعاً فقد استمر التناقص ، وكنت حين أسأل عن سر اختفاء الذخيرة ، أسرع الفتى الذى التقطه من شوارع الدقى بالقاهرة وألقيت به فى ميدان

المعركة ، أسرع باتهام الأهالى الذين كانوا يترددون علينا لتأييدنا ومعرفة أحوالنا وتقديم شتى صنوف المساعدة ، وبدأت أشك فى بعض هؤلاء الزوار ، وأفصحت بشكى هذا لبعض متطوعى الأهالى ، فاستمهلونى قليلا ، ثم عادوا إلى وفى صحبتهم نفر من مواطنى القرين ، وألقوا فى وجهى بالحقيقة الرهيبة ، بلصوص الذخيرة ، الذين لم يكونوا سوى هؤلاء الذين جئت بهم من الطريق ، من ميدان الدقى . فهم الذين كانوا يسرقون الذخيرة ويبتاعون بها الحشيش . وأمكن لزعماء أهالى القرين أن يحضروا الذين كانوا يشترون الذخيرة من زملائى ويدفعون لهم الثمن مخدرات ! ، وفى مواجهة فتية الدقى اعترف هؤلاء بأنهم كانوا يشترون منهم الطلقات بقطع الحشيش ، واتضح أن الستة الباقون كانوا يشتركون معهم فى هذه السرقة ويتقاسمون تدخين الحشيش باعترافهم ، لقد كان الفريق مكون من نحو خمسين مقاتلا ، ثمانية من القاهرة والباقى من أهالى القرين ، ومن هؤلاء الثمانية اثنان من شوارع الدقى وستة من العاطلين أرسلتهم إلى قيادة القاهرة ، لقد كان لهول الصدمة أثره الشديد على أعصابى حتى أننى قد أصبت بدوار أفقت منه على ماصبه الأهالى على رأسى من مياه وما قدموه إلى من جرعات الشاى الأسود ، وعقدت اجتماعا عاجلا مع خمسة من زعماء فدائى القرين ، وأفهمتهم أن عقوبة ماارتكبه من ساقتهم الظروف الارتجالية ليكونوا زملائى بالمعركة ، عقوبة جريمتهم فى الميدان الإعدام الفورى ، وأننا لن نستطيع ذلك بحال ، ولكن كل مابوسعنا

عمله جمع السلاح منهم وإعادتهم إلى القاهرة ، إلى مكانهم الطبيعى فى التسكع بشوارعها . وقمت والفدائيون الريفيون الخمسة ، وجمعنا السلاح بلا صعوبة ، ثم وجدتنى أنهال ركلا ولكما وصفعا على فتى الدق ، الذى اعترف بسرقة الذخيرة بعد أن كان يتهم الأهالى وكاد يوقع بينى وبينهم ، وبمساعدة فدائيو القرين الخمسة ، حبسنا هذا الفتى وزميلين له كانا يتناوبان حراسة الذخيرة ، حبسناهم فى حجرة التليفون ريثما يتم ترحيلهم إلى القاهرة لتسريحهم من الكتائب ، إلا أن القدر كان يخفى مفاجأة أخرى ، فقد تجمع الخمسة متطوعون الآخرون ، والذين كانت القاهرة قد أرسلت بهم ليقاتلوا جنود الاستعمار بميدان القرين ، فوجئت هؤلاء يعلنون احتجاجهم على حبس زملائهم ، ويبرروا تصرفهم بعدم صرف قيادة الكتائب مرتبات إلى المقاتلين ، وهو مادفعهم إلى بيع الذخيرة وأكدوا أنهم جميعا شركاء فى الجريمة ولن يقلعوا عن تدخين الحشيش !!

والجندى فى الجيش النظامى محظور عليه أن يتعاطى الحشيش لأنه يحل القيم ويميت المعنويات ويبلد الإدراك ويخدر الضمير ، فما بال الجندى الفدائى الذى أول مميزاته وأهم صفاته القيم والمعانى الرفيعة التى تطغى على نفسه وتغمر كل ثنايا صدره . وتبدو فى كل حركة له أو سكنة . وحين طلبت من كل منهم التوجه لكمينه بالصحراء لمراقبة تحركات الأعداء ، أعلنوا عصيانهم وإضرابهم عن أى قتال حتى يصرف لهم مرتبات يستطيعون إنفاقها على المخدرات . ! وكان من

مطالبهم استبدال طعام الميدان بذلك الذى تحفل به موائد القصور .!

وقام المتمردون باستدعاء لصوص المعسكر الموتورين . فحضروا وفرضوا عليهم حمايتهم وأطلقوا سراح المحبوسين ، وأسرعت بالاتصال تليفونياً بفرقة كانت تعسكر بالزقازيق بسراى السرجانى ، بقيادة الأستاذ سيف الغزالى ، ورجوته أن يحضر سريعاً بفرقته بكامل أسلحتها لقمع تمرد بفرقتى ، وبعد ما يقرب من ساعة ، حضر سيف وفرقته بكامل معداتها ، وقبض على المتمردين الثمانية بينما فر اللصوص وولوا الأدبار ، ووضع سيف نفسه وفرقته رهن تصرفى لحين حضور فرقة جديدة تحل مكان المتمردين لصوص الذخيرة ، ووزعنا جنود فرقة الزقازيق فى نقط دفاعية حول المستشفى . ولم يعد للصوص المعسكر ثمة أثر ، فقد اختفوا تماماً ، وسيطرنا على الحالة فاتصلت تلفونياً بالقاهرة أطلب فرقة جديدة وترحيل الفرقة المتمردة . وأعلنت وقف القتال إلى أن يتحقق ما طالبت به قيادة الكتائب ، كما حاولت الاستئذان فى إطلاق النار على أى شخص من اللصوص يقترب من مكاننا ، ولما كان هؤلاء اللصوص من أهالى البلدة ، فقد انزعجت القاهرة وأمرتنى بعدم التصرف لحين حضور المسئولين ، وانتهيت من حديثى مع القاهرة وشكرت كتيبة الزقازيق التى عادت أدراجها وهى على أهبة الاستعداد للعودة فى أية ساعة من ليل أو نهار . وقد أحدثت أثرها الحاسم السريع فى قمع التمرد حيث كان تعدادها ثلاثون فدائياً منظماً مسلحاً . وأمضينا ليلتنا فى عطلة أو شبه عطلة . ولا أنسى

فدائي القرين وكيف أن واحداً منهم لم يتخل عن أداء واجبه فى هذه الأزمة الدقيقة . فقد ظلوا بأسلحتهم طوال الليل بجانبي استعداداً لدفع أى عدوان محتمل من المتمردين وحلفائهم لصوص المعسكر . وفى ساعات الفجر الأولى حضر من القاهرة كل من ، جمال عزام ، توفيق الملط ، مدحت عاصم ، حسن عزت ، وما أن رأونى حتى أسر إلى توفيق برجاء مصاحبتهم حتى منزل العمدة حيث يمكن أن نتفاهم بعيداً عن المتمردين ، وأسر بشيء فى أذن فتى الدقى ، تبينت من بعد أنه قد عهد إليه بسلاح الفرقة وذخيرتها وسلمه عشرين جنيهاً نفقات غذائها وعينه قائداً للفريق .! وركبت العربة وقد راعنى أن أجدهم جميعاً مسلحين حتى بالقنابل اليدوية . وقد كان ذلك التسلح نتيجة لما أنبأتهم به من أنباء سريعة عن التمرد وتضامن اللصوص مع المتمردين ، ولما حاولت أن أحصل على إذن بإطلاق الرصاص على أى شخص من اللصوص يحاول أن يقترب من المنطقة ، وكانت تعليماتهم تقضى بمنعى من التصرف لحين حضور مندوب من القيادة ، وانطلقت العربة . ومرت بمنزل العمدة دون أن تقف . وإنما أخذت سبيلها إلى خارج البلدة ، إلى القاهرة وبأقصى سرعة ، وأدركت ما كان فى ذلك من إساءة وخطر ، وطالبت التوقف وإعادتى إلى حيث كنت . إلا أنهم أمسكوا بى . ونشبت معركة تبادلنا خلالها اللكمات . والعربة تنطلق فى أقصى سرعة إلى القاهرة ، ولم أجد بداً من الاستسلام حتى وصلنا القاهرة فى السادسة صباحاً ، وفى الثامنة وجدت مجلساً من الفريق عزيز المصرى

والأساتذة عبد الوهاب حسنى ومدحت عاصم لمحاكمتى بتهم : استفزاز الأهالى ومناوأتهم بدل كسبهم والاعتماد عليهم ، والدليل أنى طالبت الإذن بإطلاق النار عليهم . ! ولما استنكرت أن يقصد باللصوص الأهالى ، كان جواب عبدالوهاب الذى كان يمثل الادعاء ، أن اللصوص من الأهالى وذوى العزوة والقوة فيهم وأن أول من كان يجب على كسبهم هم لصوص المعسكرات . !

والتهمة الثانية أنى قمت بتنفيذ عمليـة نسف قطار حربى بريطانى بدون أمر من القيادة التى كانت تعد خطة ناجحة لنسفه ، وبناء على عدم محاولتى الاستعانة بالفنيين من أعضاء القيادة فشلت العملية ، وقد اعتذرت عن ذلك ووعدت بعدم القيام بأى قتال إلا فى حدود الأوامر اعتذرت عن ذلك الاتهام لأنى كنت حقاً مخطئاً ، أما الاتهام الأول فقد شرحت للفريق عزيز المصرى تفاصيله ودللت على عدم صلاحية من هم على شاكلة متطوعى القاهرة بالقرين ، من الذين كانوا غير ذى صفة ومن العاطلين المندفعين إلى التطوع بكتائب الفدائيين يأساً من الحياة ورغبة للارتزاق وإشباعاً لما بنفوسهم من نزوات الفيلم الأمريكى ، واقترحت عدم قبول أى متطوع إلا بعد دراسة حاضره وماضيه ، وختمت دفاعى بعزمى على عدم استطاعتى القتال إلا مع طلبة مثقفين أو عمال عاملين ، وطالبت بتسريح متطوعى القاهرة بالقرين ، وقد وافق عزيز المصرى ، إلا أن بقية أعضاء القيادة عارضوا فى تسريحهم بأمل استخدامهم واللصوص فى عمليات انتحارية قريبة .

وبسط القائد الأعلى أمامه خريطة القنال . وإثر نظرة فاحصة ، أشر أمام بلدة التل الكبير ، ثم نظر إلى بعينيه النافذتين قائلا : « هنا جبهتك الجديدة ، وعليك باختيار أعضاء فرقتك » . وتوجهت إلى جامعة القاهرة على الأثر أبحث عن متطوعين جدد يؤمنون بمصر وبالموت من أجلها . وتنطوى نفوسهم على قيم رفيعة ومُثل عليا ، وتصادف أن مر طابور طويل بحرم الجامعة من طلبة كلية الهندسة ، يسيرون فى خطى منتظمة على أنغام الطبل الداوى فى أرجاء الجامعة ، فقد كان ذلك عرضاً لأجل فرق معسكر التدريب الذى كان اتحاد الهندسة قد أقامه لتدريب الطلاب المتطوعين على أعمال حرب العصابات تمهيداً للسفر إلى القنال . وقد أثار أعصابى تلك الملابس الكاكية والخطوات العسكرية التى كانت تحرص على متابعة السير على نغم ضربات الطبل ، فما هكذا يكون تدريب جنود العصابات ، وقصدت إلى حيث المعسكر بكلية الهندسة ، وهناك شاهدت اللواء صالح حرب يستعرض طوابير الطلبة . ولاحظت وهى تمر أمامه أن الأمر قد تحول إلى فرق كشافة ، وهالنى أن يضيع الطلاب وقتهم ويستنفدون طاقاتهم الوطنية فى مثل ذلك العبث ، فى الوقت الذى كان يعانى فيه الميدان أزمة متطوعين مثقفين صالحين للقتال . ولم أجد بداً من القيام بالواجب الذى حضرت إلى الجامعة من أجله ، فاستأذنت قائد المعسكر الأستاذ حسن شعراوى فى أن ألقى كلمة ، وقدمنى للطلاب وهو يحسب أنى سأنثر على مسامعهم ما بدا فى العرض من نظام ودقة خطوات على نحو ما ورد فى خطابه

صالح حرب أثر انتهاء العرض ، قدمني قائد المعسكر لزملائه جنود المعسكر ومن تجمع من جماهير الطلاب لمشاهدة العرض العسكرى ، ولم ينس أن يذكر فى تقديمه أنى قادم من القنال . وقلت لطلاب الهندسة : « إن مصر لن تستفيد قط من هذه الطوابير التى تجهدون لإتقانها . ولن يخرج الانجليز بتلك الاستعراضات التى تقيمونها . فالميدان فى حاجة إلى مقاتلين ، يلمون بمبادىء أولية عن السلاح فى معسكركم هذا . ثم يتدربون خلال المعركة بأرض القنال . يتدربون خلال القتال مع الأعداء . فالمعارك الحية هى المعلم الأول للقتال ، والسلاح موجود لدينا فى انتظار الأيدى الوطنية الشريفة التى تحمله . أيديكم أنتم يا طلاب الجامعة . فتعالوا معى إلى القنال . تعالوا اليوم بل الآن . فلم يعد هناك من وقت . إذ بدأت المعركة ودارت عجلاتها » . وخرجت من هذا النداء بأكثر من مائة متطوع ، اخترت من بينهم عشرين طالباً كانوا أكثر من زملائهم خبرة بالسلاح . وبتكتيكات حرب العصابات ، وكذا كان اختيارهم فى حدود كمية السلاح التى يمكن للقيادة أن تزودنا بها . وفى المساء التقينا جميعاً بمركز القيادة العليا حيث تم الاتفاق مع أعضاء القيادة على إرسال رحيل ثمانية متطوعين كدفعة أولى تستكشف الميدان الجديد وتهيء الإقامة حيث تتوالى بعد ذلك الدفعات الأخرى . وتسلمنا ثمانية قطع سلاح . سافرنا على أثرها إلى التل الكبير لنصلها فى الصباح المبكر من يوم ٩ نوفمبر ١٩٥١ ومنذ تلك اللحظة تطور القتال فى جميع ميادين القنال حيث بدأت

المعارك الدموية . المعارك الحقيقيـة . التى هزت مضاجع الانجليز وأشاعت الفزع بين جنودهم .

معارك التل الكبير :

وصلنا بلدة التل من بابها الخلفى عن طريق العباسية بعيداً عن نقطة التفتيش البريطانية بالمحجر على طريق المعاهدة . وكنا نخفى قطع الأسلحة الثمانية فى أكياس كبيرة ومعها أمتعتنا . وكانت الأسلحة ستة بنادق ومدفعين استن . وبهذه الأسلحة القليلة افتتح ميدان التل الذى لم يكن طرقه الفدائيون بعد . والذى أصبح بعد شهر واحد أهم ميادين القتال . حيث توافدت عليه فرق الفدائيين ليخوضوا أشهر معارك حرب عصابات التحرير فى العالم على نحو ما سيرى القارىء بعد قليل .

وقصدنا إلى محطة التل الكبير . حيث كان ناظرها قد سبق أن قدم عدة مساعدات فنية فى محاولتنا نسف القطار الحربى البريطانى . والتى فشلت بسبب اختلاف سرعة القطار عن سرعة إشعال الفتيل قياساعلى مسافة الإشعال من مرآى القطار . فانفجرت الألغام قبيـل وصول القطار بدقائق ثلاثة . أمكنه خلالها أن يتوقف عن المسير نظراً لأنه كان عقب مبارحته محطة التل بمائة متر . وقد ساعدته سرعته البطيئـة فى أن ينجح سائقه فى وقف عجلاته ، قبيل مكان الإنفجار بسبعة أمتار كان أحمد « أفندى » ناظر المحطة ، هوالذى تطوع بإرشادى إلى موضع النسف . وإلى موعد وصول القطار من المعسكر . وإن كان قد أسف كثيراً لفشل العملية التى كان يترقب نجاحها بفارغ الصبر . والتقينا

بناظر المحطة ، الذى لمح فى وجوه زملائى شيئا جديداً . فلم يكن قد رآهم من قبل . وقد عبر عن ذلك بقوله وهو يبادلنا التحية .

« وجوه جديدة . تلمع عيونها ببريق المعركة . وتزوغ نظراتها حول المحطة حيث يكثر الصيد » . وبمكتب الناظر أمكننا أن نتفاهم على أن يقدم لنا مأوى مؤقتا ريثما يعثر على مسكن ملائم لمهمتنا نستأجره من صاحبه . وقد كان أحمد أفندى هذا يمثل شهامة المواطن المصرى ووطنيته . فأسرع باستدعاء أحد موظفيه وقدمه لنا باسم يوسف « أفندى » وهو شاب نحيف تعلو محياه سيماء الموظف الحكومى الصغير بكل متاعبة وأيضا ابتسامته التى لا تفارقه . والتى يقابل بها كل ما حط عليه من صنوف البؤس والغبن فى الحياة . وفى كلمات قصيرة حاسمة أدلى الناظر لموظفه بحقيقة مهمتنا . وعرض عليه أن يتبرع لنا بمسكنه عدة أيام ريثما نعثر على مسكن ملائم . على أن يقيم فى ضيافته خلال هذه الأيام التى سنشغل فيها مسكنه . وانفرجت أسارير يوسف أفندى وهو يقول « ليتنى بمستطيع الاشتراك معهم فى ضرب الإنجليز . إنى وما أملك رهن إشارة الفدائيين » . وتقدمنا يوسف افندى إلى حيث صحبنا إلى مسكنه الذى دلفنا إليه وألقينا بمتاعنا وسلاحنا . وبعد أن قدم لنا تحية من الشاى الأسود . ترك لنا مفتاح مسكنه وانصرف عائداً إلى عمله . وكان مسكن يوسف افندى هذا شيئا فريداً فى نوعه . فهو يقع برصيف المحطة ذاتها . يقع فى بطن الرصيف . لا أكثر من قبو صغير أعد سقفه وحوائطه بالأسمنت المسلح . ولا يزيد ذلك القبو عن

حجرة واحدة صغيرة . تصل إليها بدرجات سلم صغير افتحر فى أرض الرصيف . مما جعلها أشبه بخندق حربى . وكل ما كان بالحجرة من أثاث ، سرير صغير ، منضدة ، لمبة غاز ودولاب صغير . أما دورة المياه فتلك التى خصصت لموظفى المحطة وركابها . وقد عرفنا أن هذا القبو كان ضمن المخابىء التى أعدتها الحكومة خلال الحرب العالمية الثانية ليحتمى بها موظفوها من شظايا قنابل الغارات الجوية . ولما انتهت الحرب جعلت منه مصلحة السكة الحديد مسكنا لموظفيها ! !

أقمنا بهذا الكهف أو مسكن يوسف أفندى ستة أيام . استكشفنا خلالها المنطقة . وانتزعنا بعض الألغام التى كانت منبثة حول المعسكر وقام طلبة الهندسة بفكها واستجلاء كنهها . وقد أمكن لهم أن يجمعوا عبواتها ويصنعوا منها لغما كبيراً . كذلك درسنا تحركات الانجليز داخل وخارج المعسكر . واستراتيجية الأرض التى سنقاتل عليها . وقد عثر ناظر المحطة على مسكن لنا فى وسط البلدة انتقلنا إليه وقد رفض صاحبه أن يتقاضى مليما أجراً لسكننا . وعدت إلى القاهرة حيث أحطت القيادة بنتيجة دراساتنا للميدان الجديد . وكانت أوامر وجيه أباظه تقضى بالهجوم على قوافل الأعداء ما بين المحجر والقصاصين لضرب خطوط مواصلات الانجليز والوصول إلى عزل معسكراتهم بعضها عن بعض . وعدت إلى التل ومعى ستة من المتطوعين الجدد كانوا طلبة بكليتى الهندسة والزراعة بجامعة القاهرة . ونزلنا بمسكننا الجديد فى حى حماده بالتل الكبير . حيث بدأ العمل . بدأ القتال ، القتال الجدى ،

معركة المحجر :

لم يكن التل يعد ميدانا لقتال ، ولم يكن قد أطلقت به رصاصة واحدة ، الأمر الذى أشاع الطمأنينة فى قلوب الانجليز ، وفى إحدى ليالى نوفمبر أقنا كميناً على طريق المعاهدة مابين نقطة تفتيش المحجر والمعسكر ، فى انتظار اقتناص جنود التفتيش أثناء استبدالهم ، وفى الواحدة صباحا مرت القافلة البريطانية ، ففتحنا على جنودها النيران ، وبعد لحظات بادلونا بنيران شديدة استمرت حوالى نصف ساعة استأنفت القافلة بعدها المسير ، بينما عدنا أدراجنا إلى حيث مسكننا ، ننظف البنادق ومدافع الإستن الأربعة من أثر رمال المعركة ، كما تدارسنا ماكان من ثغرات وأخطاء فى معركتنا تلك الأولى بالتل الكبير .

وعلى أثر ذلك ، حاولنا نسف القطار الحربى البريطانى ، لقد كان حقا صيدا مغريا بما كان يحمل من عتاد وذخيرة ، وقضينا فى محاولة نسفه أياما وليالى عدة ، إلا أن جميع تلك المحاولات قد باءت بالفشل وكانت تنتهى بتبادل نيران خفيفة بيننا وبين حراس القطار ، وضرب احمد افندى ناظر المحطة كف بكف . ويرجع الفشل فى نسف هذه القطارات إلى عدم وجود آلات تفجير حديثة تنفجر بمجرد مرور القطار فوق الألغام بعد ، ورغم أننا تتبعنا هذا القطار ما بين القصاصين والتل ، وغيرنا مواضع النسف أكثر من مرة إلا أن واحدة لم تفلح ذلك أن القطار كقطار حربى كان يغير من سرعته بين محطة وأخرى ،

والسرعة والمسافة هى المحك فى تفجير اللغم الزمنى تحت هدف متحرك وكان الخطأ دائما فى تقدير سرعة القطار وقياسها على المسافة فى زمن التفجير . ولم تفلح أية عملية لاصطياد القطار البريطانى فى جميع ميادين القنال سوى عملية واحدة بالسويس ، قام بها وجيه أباظه وبعض ضباط الجيش ، وأحضر لها الألغام والآلات اللازمة خلسة فى طائرة حربية مصرية من مرسى مطروح أفرغت حمولتها ببور سعيد ومنها نقلت إلى السويس حيث فجرت والقطار الحربى منطلق بأقصى سرعته فانقلب بمن فيه وتفجر ما كان ينوء به من ذخيرة ومتفجرات ، وكانت خسارة الانجليز من هذه الضربة شديدة موجعة .

وذات صباح ، فوجئنا بجمال عزام يحضر إلينا بالتل وقد انتابه فزع وغضب شديدين ، ذلك أنه قصد إلى القرين للتفتيش على الفرقة التى تركوها للقتال بها والتى قالوا إنهم قد احتفظوا بها للأعمال الانتحارية فإذا به لم يجد أحدا من جنودها ، ولا ثمة أثر لهم ، لقد سرقوا السلاح والمال وفروا هاربين ، ولا يعرف أحد من الأهالى عنهم شيئا ، وعاد جمال إلى القاهرة ، حيث أبلغ وزملاؤه الجهات البوليسية التى كلفت مباحث الشرقية بالبحث عن اللصوص الهاربين ، وبعد أيام وصل إلى التل كل من وجيه ، جمال ، توفيق ، ومعهم قوة من بوليس الشرقية ، فقد عرف البوليس أين يختفى الهاربون ، وقصد الجميع إلى « إكياد » وهناك فى أحد الأكواخ وبين سحب دخان الحشيش ، كان جنود فرقة القرين جالسين وفى صحبتهم جمع من لصوص هذه المنطقة ، فقد

يحالفوا معهم للسرقة من أية جهة ، وقبل أن يقوموا بمشروعاتهم الإجرامية ، كان البوليس وقيادة الكتائب قد قبضوا عليهم . وجمع توفيق من أيديهم السلاح ، وأحضره لنا . بينما قام البوليس بإعادتهم إلى طرقات القاهرة ، واعتمدت القاهرة على أهالى القرين ليقاتلوا القوات الانجليزية إذا ماحاولت احتلال البلدة ، أو مناوشتها . وقصد إليهم الأستاذ رفيق الطرزى عضو مجلس النواب ، وتبرع لهم بثلاثين ألف طلقة نمرة ٣٠٣ ، حيث كانت الأسلحة وفيرة فى أيديهم والذخيرة لم تكن لتكفى قيامهم بالدفاع عن بلدتهم .

معركة المحجر الثانية :

أعددنا خطة جديدة لاقتناص جنود المحجر على ضوء خبرة المعركة السابقة ، وتلخصت الخطة فى أن يكمن أحدنا فوق إحدى أشجار طريق المعاهدة ، بينما يكمن الباقون على الجانب المقابل من الطريق ، وحين تمر القافلة ، يلقى كمين الشجرة قنابل حارقة على الدبابة التى تتقدم القافلة . وعندئذ يطلق كمين الطريق نيرانه على الجنود الذين تقلهم عربات النقل ، فإذا ما حدثت مقاومة فستكون موجهة لكمين الطريق لإسكات نيرانه ، بينما يأمن زميلنا فى الاتجاه المقابل طريقه ويمكنه بسهولة أن ينزل من مكمنه بالشجرة ويتخذ طريقه من بعدها إلى البلدة ليكون فى انتظار زملائه . وكانت هذه الخطة ترمى إلى تعطيل مقاومة الدبابة واضطرار رجالها إلى مبارحتها أمام شدة حرارة النيران التى ستشتعل

بها وتتفاعل مع طلائها . وعندئذ يمكن اقتناصهم ضمن من يصرع من سائر جنود القافلة . وفى منتصف الليل اتخذ كل مكانه مستتراً بالظلام ، وخلف كثبان رمال جسر ترعة الاسماعيلية كمن كل بسلاحه فى انتظار وقوع الصيد فى الشباك ، وكان الزميل الذى تطوع للقيام بتعطيل مقاومة الدبابة طالباً بالأزهر أرسلته القيادة إلينا من القاهرة ، وبعد أن زودناه بما يلزم مهمته من قنابل حارقة ، وبأحد أهالى التل ليقوده إلى كمينه ويرشده إلى المسالك التى تؤدى به إلى البلدة أثناء انسحابه وكيما يشد من أزره ، توجه فى صحبة الدليل إلى الموقع الذى سيضرب منه ، ولم يكن لنا أن نطلق رصاصة واحدة إلا بعد أن يلقى بمتفجراته الحارقة على دبابة القافلة وبعد دقائق من الانتظار والتحفز . لاحت القافلة وهى فى طريقها إلينا ، وأمسك كل بأنفاسه . وضغط على أعصابه . ويده على « التتك » وطلقات الرصاص تكمن بفوهات البنادق ومدافع الأستن والتومى فى انتظار أن تفتك بجنود الأعداء ، ومرت القافلة من أمامنا تتقدمها الدبابة ، ولم تنفجر أية قنبلة ! ، وراودنا الأمل فى أن يلقى صاحبنا بقنابله والدبابة تمر من تحته يتبعها رتل من اللوريات والعربات محملة بالجنود . ولكن تبدد الأمل . فلم يلق شيئاً . ومرت القافلة بسلام . ! وتجمعنا فى سفح الجسر والغيظ يأكل قلوبنا على فشل خطتنا ونجاة الصيد بتخلى زميلنا عن واجبه ، على أننا لم نشأ أن نرجع فاشلين فأصررنا على أن نقاتل فى ليلتنا تلك ، وكانت استكشافاتنا السابقة لتحركات جنود نقطة المحجر تقول أن الموعد التالى

لتحرك القافلة البريطانية فى السابعة صباحاً ، فاستمررنا فى أماكننا بعد أن استغنينا عن ضرب الدبابة من فوق الشجرة ، نظراً لأن الشمس كانت قد غمرت المنطقة بنورها ، وفى السابعة تماماً وصلت القافلة وفتحنا نيراننا على جنودها الذين أخذوا بغتة . فسقط منهم ستة قتلى وبعض الجرحى ، على نحو ما ورد فى بلاغ قيادتهم ، بينما فتح علينا بقية الجنود نيرانهم ، وحاولنا أن نواصل نيراننا ، إلا أن أسلحتنا كانت قد تمردت وأبت أن تقذف ولو طلقة واحدة ، فقد تعطلت جميعها وتحولت إلى قطع من الخردة بأيدينا ، فى الوقت الذى كانت تنهال علينا فيه طلقات أعدائنا كالسيل المنهمر فوق رءوسنا . وأسرعنا بالانسحاب زحفاً فى الحقول ، وقد كان ذلك خطأً بالغاً إذ أصبحنا مكشوفين للأعداء تماماً ، والذين كانوا يضربوننا من طريق المعاهدة المرتفع عن مستوى الحقول ، فضاعفوا من نيرانهم ونسجوا منها ستاراً رهيباً من طلقات مدافع البرن والفكرز فوق رءوسنا بقليل ، ولولا استراتيجية الأرض من استحالة ضرب طلقات المدافع الرشاشة بأقل من قدمين على مستوى الحقول المنخفضة . وعدم مهارة حملة البنادق من جنود القافلة الذين كانوا يطلقون رصاصهم بأيدى مرتعشة يتراقص بينها السلاح . ولولا استمرارنا فى الزحف أربعة كيلو مترات فى القنوات وبالمزروعات ، لولا ذلك كله ، لقتلنا عن آخرنا ! ، وقد وصلنا البلدة وكان الأهالى فى انتظارنا الواحد تلو الآخر وفوهات أسلحتنا مسدودة بالطين كملابسنا ووجوهنا ، وبعد نحو نصف ساعة كان عددنا قد اكتمل ولم

تنقص سوى واحد ، ومرت نصف ساعة أخرى ولم يحضر . وكان لا بد من البحث عنه حتى إذا ما كان مصاباً أمكن إحضاره لإسعافه .

وكان الإنجليز لا يزالون محيطين بمكان المعركة وإن كانوا قد أوقفوا النيران ، ولم يكن أحد منا يستطيع أن يذهب إلى منطقة المعركة ، فسيفرغ الأعداء فيه رصاصهم . بينما إذا ماذهب مواطن من الفلاحين فقد لا يناله أذى ، وطلبت من الأهالى أن يتقدم أحدهم بمهمة البحث عن زميلنا المفقود محمد مأمون ، ومرت دقائق تردد فيها البعض برز من بعدها بين الصفوف أحد الأهالى وقصد لفوره يبحث عن مأمون بينما انشغلنا نحن فى تنظيف وجوهنا وأيدينا وأسلحتنا . وبعد حوالى ساعة عاد عبده حاملا بين ذراعيه زميلنا الذى كان فاقد الوعى داخل إحدى القنوات الجافة ، وبقليل من الإسعافات ، عادت إليه الحياة . وشكرنا عبده على شجاعته ، ومن يومها انضم إلى فرقتنا ، فقد كان فدائياً شجاعاً ، هجر من ساعته تلك حرفته ليقاتل أعداء البلاد ، وبذلك أصبح الفريق مكوناً من طلبة جامعة القاهرة وعبده عامل الأحذية ، وتاج دليل الفريق . أحد لصوص المعسكرات البريطانية ، والخبير بدروبها ومسالكها ، عمل معنا كدليل بلا مقابل وبلا سلاح .

هذا ولا أكتم القراء مدى ما حط علينا من سخط بسبب فساد الأسلحة التى خانتنا بالمعركة وأبت بعد عدة طلقات أن تواصل عملها وقد عدنا بها إلى القاهرة حيث شرحنا للفريق عزيز المصرى أمر ما كان منها بالمعركة ، فغضب الرجل وأمر باستبدالها وتأليف لجنة فنية لإنتقاء

الأسلحة قبل شرائها ، ثم أمر بتسليمنا أربعة عشر قطعة سلاح أخرى صالحة للعمل وكانت فى حالة طيبة ، كما تسلمنا عربتى جيب أضيفت إلى العربة الدودج الصغيرة التى كانت ملكا للطالب محمد واكد والذى تبرع بها للفريق حال إنضمامه للقتال بين صفوفه . وفى المساء عدنا إلى التل وقد رفعت الأسلحة الجديدة كثيراً من معنوياتنا . وفى ذلك الوقت كان فريق الحزب الإشتراكى قد وصل إلى التل وباشر نشاطه فى مهاجمة القوات الإنجليزية وكان ضمن متطوعى الفريق الإشتراكى نخبة من متطوعى طلبة جامعة الاسكندرية واستقالوا بعد أيام من فريقهم بسبب إصرار قيادتهم على عدم تغيير أسلحتهم الفاسدة وتفاهة ما كان يقدم لهم من طعام حين يقدم لهم . حتى أنهم قد أمضوا خمسة أيام بلا طعام أصلا . وبلا قتال طبعا . فى الوقت الذى كانت تفيض به خزينة الحزب الاشتراكى فى القاهرة بألوف الجنيهات والتى كانت قد تبرعت بها لتمويل فريق الحزب فى القتال ! استقال هؤلاء الطلاب من فريق الاشتراكيين وانضموا إلى فريقنا الذى لم يكن يقاتل تحت لواء حزب وإنما بتوجيه القيادة السالف ذكرها فى مقدمة حديثنا عن « بداية الانفجار » ولم يكن من بيننا مقاتل واحد فى أى حزب من الأحزاب . وكذا كان هؤلاء الطلاب الذين أقبلوا إلينا بعد أن استقالوا من الفريق الحزبى . وبلغ بذلك تعداد فريقنا إثنى وعشرون مقاتلا كاملو السلاح والعتاد الأمر الذى كان له أثره فى تطور القتال . فقد توالت هجماتنا على معسكرات وقوافل الانجليز بالتل والقصاصين

والمحسمة وأبو صوير وحتى إذا ماجاء عيد الميلاد ، كانت عدة معارك هامة نتحدث عنها فيما يلي :

معارك الكريسماس :

كان الجنرال إرسكين ، قائد قوات بريطانيا فى ذلك الوقت بمنطقة القنال ، قد أذاع بيانا على جنوده وعلى الأهالى ، مهدداً الفدائيين ومطمئنا جنوده بمناسبة عيد الميلاد قائلا : « لن تستطيع العصابات المصرية مهاجمتنا بعد اليوم ، فقد أعددنا لكل شىء عدته ، وسنسحق فرقهم تماماً ونزيل من الوجود أية قرية تحدث منها غارات على جنودنا » . وختم القائد الاستعمارى بيانه قائلا :

« وإنى لأستطيع اليوم أن أطمئن جنود وضباط الامبراطورية بأنهم سيقضون بمعسكراتهم عيد ميلاد سعيد » .

كان هذا هو تهديد إرسكين للفدائيين وتحديهم . . ، وقد التقط الفدائيون قفاز التحدى ، فجعلوا من ليلة عيد الميلاد جحيما بالمعسكرات وموتاً ورعباً لجنود الامبراطورية . وكان ذلك هو البيان الذى ردوا به على إرسكين .

فقد أسرع وجيه أباظه بالحضور من القاهرة ومعه خطة كاملة وبرنامجاً حافلا لليلة عيد الميلاد بالقنال ، وبنادى ضباط بوليس أبى حماد ، كان ينتحى بقواد فرق مختلف جبهات القتال إحدى الغرف الجانبية ، وبعد أن تلى بيان الجنرال إرسكين ، قال « وردنا الليلة على هذا التحدى والتهديد ، هو تشديد الضربات وتعدد الهجمات على القوافل

والمعسكرات فى كل الجبهات ». وما أن أقبلت ليلة ٢٥ ديسمبر ١٩٥١ حتى كانت قوات الامبراطورية تتعرض لهجمات شديدة من الفدائيين فى كل متر من مثلث التل — القصاصين — بور سعيد، واستمر أزيز الرصاص وأصوات المتفجرات ودوى قذائف المدافع الثقيلة يدوى فى سماء منطقة القنال، طوال الليل، لم ينقطع دقيقة واحدة، وكسر أنف الصلف البريطانى وداسته أقدام الفدائيين المصريين ومرغته فى تراب القنال.

بدأت معارك الكريسماس فى الثامنة مساء وتوقفت فى السادسة صباحاً، وقد بدأت مقدمات هذه الليلة بحصار حديدى فرض حول منطقة القنال خلال الأيام السابقة، فقد أقام الفدائيون نقط تفتيش على جميع الطرق المؤدية إلى القنال. وكذا أقاموا نقطاً متحركة داخل المنطقة حول مداخل المعسكرات، حتى لا تتسرب أية مواد تموينية إلى معسكرات الأعداء، وذلك فضلا عن نقط التفتيش الثابتة والمقامة منذ أولى ساعات المعركة. وقد ضاعف الفدائيون الحصار حول المعسكرات طول الأسبوع السابق ليلة عيد الميلاد حتى لا يجد الأعداء ثمة ما يمكن أن يكون قوام احتفالهم، وفى سبيل ذلك اضطروا استثنائياً إلى منع جميع عربات النقل التى كانت تحمل تموينا للأهالى، منعها من دخول المنطقة خشية أن يستولى على شحناتها قراصنة بريطانيا وقد قام الفدائيون بتفتيش جميع العربات الخاصة وأمتعة ركاب عربات الأوتوبيس التى كانت تدخل منطقة القنال تفتيشاً دقيقاً، وصادروا

كل نوع من الأغذية وأية كمية منها ، وكثيراً ما صادروا أقة من الفاكهة كان يحملها راكب لغذائه ، حتى لا يغتصبها جنود نقط التفتيش البريطانية ، وكانت المصادرة تعنى إما أن يستهلك الراكب إذا ما كانت كميتها تسمح بذلك ، أو العودة بها إلى حيث أحضرها ، أما المواد التموينية التى كان يثبت أنها كانت فى طريقها إلى الأعداء فكانت تصادر وتوزع كميتها على الأهالى أو المستشفيات ، أو مقدم أمام صاحبها ، وكانت العربات إذا ما اجتازت نقط تفتيش الفدائيين على أبواب القنال تعرضت لتفتيش آخر داخل المنطقة من نقط تفتيش متحركة ما بين المعسكرات ومدن القنال ، وبذلك لم تتسرب أيه كمية من المواد الغذائية إلى جنود الإمبراطورية ، وقد غنم الأهالى والمستشفيات خلال ذلك كميات هائلة من الحلوى والمأكولات وسائر المواد التموينيـة التى صادرها الفدائيون بعد أن ثبت لهم أنها كانت فى طريقها إلى معسكرات الأعداء .

بدأت معارك عيد الميلاد فى الثامنة مساء ولم تتوقف إلا فى الصباح وأسرد للقارىء عرضاً سريعاً للعمليات الحربية التى تمت بتلك الليلة فى الجبهة التى كنت أعمل بها ، وهى صورة لما حدث فى جميع الجبهات الأخرى .

وفى الثامنة مساء أغرنا على جنود نقطة تفتيش المحجر ، واستمر تبادل النيران ساعة وثلث ، وفى العاشرة أغرنا على محطة مياه معسكر التل والمعروفة باسم « الفلتر » ، ودام تبادل النيران نصف ساعة ، انسحبنا من بعدها ، بينما استمر جنود الفلتر يطلقون نيرانهم الشديدة ساعة

إلا ربح ، على لاشيء ، لمجرد الرعب والفزع ! .. وفى الحادية عشر والنصف كنا نحيط بمعسكر القصاصين وأصليناه ناراً حامية طوال ساعة كاملة لم يقر خلالها لجنوده قرار ، فقد كانت النيران تنصب عليهم من جميع النواحى ، ومن صحراء القصاصين توجهنا إلى أبى صوير حيث كان يدوى فى آذاننا أزيز الطلقات التى كانت تتوقف دقائق لتعود إلى أسماعنا من جديد ، فقد كان فريق أبى صوير فى قتال منذ الغروب ، ويمتاز ذلك الفريق بأن جميع أفراده من الفلاحين ، إن كان يقودهم فلاح مثقف هو الأستاذ عبد الحميد صادق ، وفى ظلام الصحراء التقينا بهؤلاء الفلاحين البواسل ، وانضممنا إلى فدائيي أبى صوير ، ذوى الجلاليب والأقدام العارية ، وأصبحنا عدداً لا بأس به ، وعلى الفور أعددنا كمينا لاقتناص أول قافلة بريطانية تمر بنا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؛ وفى أبى صوير كان لايتوقف مسير القوافل الحربية الانجليزية طوال اليوم ، ليلا ونهارا ، ومرت قافلة انهمر على جنودها رصاصنا فأخذوا يبادلوننا النيران وهم يولون الأدبار ، وبعد قليل مرت قافلة أخرى وحاصرتها نيراننا ، ولم يدم تبادل الرصاص أكثر من عشرين دقيقة بسبب توقف النيران البريطانية فجأة وتوقفنا بالتالى ، بعد أن بعدت القافلة عن ميدان المعركة قليلا ، وعلى الأثر حضرت قافلة أخرى ، هالنا منها جرأة رجالها ، فقد كانت عرباتها الثلاث تضيء أنوارها ! وكانت القوافل البريطانية قد اعتادت أن تسير ليلا وأنوارها مطفأة دائما ، مستترة

بالظلام من كمائن الفدائيين ، وما أن دخلت خطوطنا هذه القافلة المضيئة حتى كنا قد فتحنا عليها النيران الشديدة المتلاحقة ، ولكن سرعان ما صاح أحدنا « عربات إسعاف ، صليب أحمر » وبهت الجميع وقد أوقفنا الضرب ونحن نشاهد علامات الصليب الأحمر ، على جوانب ومؤخرة العربات ، وشعر كل منا بفداحة ماوقع فيه من خطأ إنسانى . فقد كانت الأضواء لنرى علامات الصليب الأحمر الذى أقبل لينقل الجرحى ، وأوقفنا النيران ، واستأنفت عربتان سيرهما أما الثالثة التى كانت فى المقدمة فقد تعطلت بعد أن أصيبت خطأ ، وبعد خطوات قليلة نزل رجال الصليب الأحمر وحملوا جرحى الكمين السابق ، إلى حيث عادوا بهم إلى مستشفى المعسكر ، وكنا نشاهد كل ذلك على بعد أمتار قليلة منا ، ولم نطلق طلقة واحدة ، فقد كان الأمر أمر جرحى يجب أن يسعفوا حتى ولو كانوا من الأعداء ، ونحن جنود عصابات . ورغم ذلك فقد استغلت القيادة العسكرية البريطانية ذلك الحادث وأخذت تشن حملاتها بالصحف والاذاعة البريطانية على مدى مازعمت من وحشية الفدائيين المصريين الذين اعتدوا على عربات الصليب الأحمر ! . .

وكانت الساعة وقتئذ قد بلغت الخامسة صباحاً حين مرت بنا قافلة كبيرة ، وما أن أطلقنا الرصاص على رجالها حتى ردوا بنيران شديدة لم تلبث أن توقفت ، واستمرت متوقفة وقد رأينا عرباتها تواصل سيرها فى الظلام ، وخرجنا من الكمين نتضاحك على ما كان من

صرخات جنود الأعداء ، إلا أننا فوجئنا بقذيفة ضوئية تنطلق فى الفضاء وأصم دويها آذاننا . وأحال ضوؤها المكان إلى نهار . وكان فى هذه القذيفة مفتاح نجاتنا ، إذ انبطحنا على الأرض مع صوت الانفجار ، الذى تلاه جحيما من طلقات الفكرز والبرن وقذائف الهاون . كانت تطلق جميعها فى وقت واحد وبلا توقف لخمسين دقيقة ، فقد ضرب الانجليز بشدة . وبشدة عنيفة . حتى زرعوا منطقة المعركة بقذائف مدافع الهاون ذات الصوت المزعج والصفير المقبض . والتى كانت تتساقط من بيننا فتقتلع الأرض ويردمنا ترابها المشبع بالبارود وفى السادسة صباحاً توقفت نيران الانجليز الذين واصلوا المسير . وقد حسبوا أن رصاصهم قد فتك بنا جميعاً على نحو ما ورد بنشرتهم الإخبارية فى اليوم التالى ، إلا أن واحداً لم يصب إصابة واحدة ، رغم أن الانجليز كانوا قد استعملوا الحيلة فى الهجوم . بأن أدارت عرباتهم محركاتها وسارت لتقف بعيداً . بينما كانت قد تركت جنودها بالسلاح فى ظلام طريق المعاهدة وخلف الأشجار ، إلا أن ضرباتهم على رغم شدتها . كانت ضربات جنود خائفة تطلق النيران فى مساحة واسعة معتمدة فى الإصابة على إحكام ستار النيران على مدى بعيد ومسافة عريضة ولمدة طويلة ، ونحن تحت هذا الستار الجهنمى كنا نرقد بين كثبان الرمال صامتين . تمر من فوقنا طلقات المدافع السريعة وتتطاير من حولنا شظايا قنابل الهاون ، وبعد التأكد من رحيل القوة البريطانية ، انسحبنا إلى منزل عبد الحميد صادق الذى كان وبعض

الأهالى فى انتظارنا وحول مقطف ممتلىء بالفول السودانى . جلسنا والفدائيون الكادحون فى الأرض . ولم تمض دقائق حتى كان المقطف قد فرغت عبوته فى بطوننا ، ولم تكن الخسائر أكثر من تهدم بيتين صغيرين . أحدهما كان قد خلى من أصحابه ، والثانى دمرت قذيفة الهاون الحجرتين الأماميتين ، بينما نجت الغرفة الداخلية والتى كان ينام بها أهل البيت ، وكذا جرح سطحى فى رأس أحد فدائيي أبى صوير من أثر شظية مس جانبها رأسه ، وبقية الخسائر كانت فى مزروعات بعض الحقول التى أتلفتها نيران الأعداء ، ومع شمس الصباح عدنا عبر الصحراء إلى حيث بيتنا بحى حماده . بالتل الكبير ، وعلى ذكر بيتنا ، فإن أهالى القنال كانوا دائماً يرفضون أن يتقاضوا مليما واحداً أجراً لسكن الفدائيين . مشاركة منهم فى المعركة . وغالباً ما كان أصحاب هذه البيوت من النساء الذين وضعوا حصيلة العمر فى بناء منزل صغير . يأويهم وأبناءهم وتستر حصيلة بعض غرفه بعض ما هم عليه من فقر وإملاق شديدين . ورغم ذلك رفضوا دائماً أن يتقاضوا مليما من الفدائيين . بل كانوا يخلون المنزل تماماً ويسكنون مع جيرانهم وهم فخورين أن يأووا الفدائيين . ياللوطنية التى تجرى فى عروق المصريين كل المصريين ، وعلى رأسهم الكادحون فى أرض القنال .

كانت تلك هى معارك الكريسماس ، المعارك التى نشبت فى جميع مناطق القنال . طوال الليل وبلا توقف . والتى أحالت المنطقة كلها إلى ميدان حرب حقيقية . لم تنقطع من سمائها أزيز الطلقات ودوى

الانفجارات ، تلك هى ليلة الكريسماس التى منى بها إرسكين جنوده ووعدهم بقضاء ليلة عيد سعيدة ، فأحالها الفدائيون إلى ليلة دموية مزقت أعصاب جنود بريطانيا . الذين لم تغمض لأحدهم عين . ولم يهدأ لهم بال . بل قضوا الليلة كلها يصدون هجمات الفدائيين بأيدى مرتعشة على السلاح . كانت تضرب فى الفضاء . وبكثرة غزيرة من الطلقات والقذائف . الأمر الذى كلف خزانة بريطانيا أموالا طائلة ثمناً للذخيرة المحترقة فى الفضاء بأيدى الجنود الذين كانوا فى انهيار تام .

والذى يمكن أن نقول عن جنود بريطانيا أنهم يفتقدون المهارة فى الحرب ، بل يمكن القول باطمئنان أنهم ليسوا بمقاتلين أو حربيين . فهم جنود مرفهون ويقاتلون دائماً عن قضايا لا يؤمنون بها . كما أنهم كانوا يقاتلون بأرض أجنبية معادية . أرض القتال التى يجهلون ما بها ويتوقعون فى كل شبر منها مفاجأة لهم . ويدركون أن أهلها جميعاً أعداء لهم ويعملون للفتك بهم . وهو أمر يضعف معنوية الجندى كثيراً ، على عكس الفدائى المصرى الذى كان يقاتل على أرضه ويعلم كل شبر بها . ويحيط به أهلها إحاطة السوار بالمعصم يشدون أزره ويمدونه بمختلف صنوف العون والتأييد ، كما أنه كان يقاتل بإيمان راسخ . كان يقاتل من أجل قضية يؤمن بها . ويستبشر بالاستشهاد فى سبيلها . قضية الجلاء ، وهو أمر له أثره البالغ العميق فى رفع معنويات المقاتل المصرى .

قلعة حربية بحدائق الملك . !

انتقلنا إلى منزل جديد عقب معارك الكريسماس هذه ، حيث بلغنا أن الانجليز قد عرفوا مسكننا وأنه من المحتمل أن يباغتونا به ليلا ، وعلى ذلك انتقى لنا الأهالى بيتاً آخراً ، كان ذا موقع استراتيجى هام ، بحى تل اللبن ويطل جانباه الشرقى والشمالى على حدائق الفاكهة الشاسعة للملك السابق بتفتيش الوادى ، ولم يلبث أن تحول ذلك المنزل بطابقيه إلى قلعة حربية تزخر بالسلاح والعتاد والقنابل ، وعلى ضوء ما كان قد وصلنا من معلومات عن اجتهاد الأعداء لمعرفة مسكننا لمهاجمتنا به ، فقد تدربنا جميعا على القفز من سطح البيت إلى حدائق الملك ، لنكون جميعا بأسلحتنا بعد ثوان قليلة خلف أشجارها الكثيفة ، وأقمنا نقط المراقبة على مداخل الطريق ، بحيث إذا ماحاول الانجليز مهاجمتنا ، ابتلعتنا غابات أشجار الفاكهة الكثيفة عند دوى أول طلقة بنقط المراقبة فى آذاننا ، كم كان ذلك البيت حصينا فى موقعه ، سيما بعد أن أخذ الخفراء السودانيين للحدائق يتعاونون معنا فى صد هجمات الانجليز عن البلدة ، أو فى حماية ظهورنا خلال المعارك ، فقد كان إذا ما اكتشف الأعداء مركزنا واختفينا بين الأشجار ، كان هؤلاء الخفراء الشداد ينضمون معنا فى قتال شديد يصد الانجليز حتما بحكم اتساع هذه الحدائق وكثافة أشجارها ، وكثيرا ماكان برتقال الملك يسيل لعابنا ويدفعنا إلى اقتطاف بعض ثماره التى لم تكن لتحصى من كثرتها ، كثيرا ما كنا نملأ بطوننا من هذا البرتقال الملكى هذا وحين

أقبل بعد أيام عيد رأس السنة ، دارت خلاله معارك طوال الليل وفى كل جبهات القتال بسائر مدن القنال ، على نحو ماحدث ليلة عيد الميلاد وذات صباح حضر إلينا بالتل كل من عبد الوهاب وجمال وتوفيق ومعهم إثنى وثلاثين بندقية فى حالة جيدة ومدفعين برن وسبعة عشر ألف طلقة ، وتحولت حجرات الطابق الثانى إلى غرف سلاحليك ، وقد غمرنا البشر حين عرفنا أن كل شهر سيزودوننا بمثل الذخيرة التى أحضروها ذلك اليوم ، وأن متطوعين جدد فى طريقهم إلينا خلال أيام وأن السلاح سيتضاعف ويتنوع من يوم لآخر ، وعلى مر المعارك هكذا قال أعضاء قيادتنا الثلاثة ، كما أضافوا إلى ذلك قولهم أن تجار السلاح لم يعودوا منذ اللحظة السابقة مصدرا لتسليحنا ، فقد أصبح مصدرنا الجديد هو الحكومة ذاتها ، نعم حكومة الوفد وتلك هى أولى شحنات أسلحتها لنا ، إذن فقد احتضنت الحكومة الفدائيين وها هى تمولهم بالذخيرة والسلاح .

وقد كانت حكومة الوفد هذه إلى أيام قليلة ، تحاول أن توقف أو تهدىء من قتال الشباب المصرى لقوات الاستعمار ، حتى أنها أصدرت أوامرها بالقبض على الفدائيين وترحيلهم إلى بلادهم بعد مصادرة أسلحتهم ، إلا أنها عجزت عن تنفيذ أمرها ذاك ، فقد كانت المعركة تسير قدماً وتقوى يوماً بعد آخر ، والجماهير فى مصر كلها تشد أزر الفدائيين ، كما أن ضباط بوليس القنال الوطنيين امتنعوا عن تنفيذ هذه الأوامر بمالا يعرضهم للمسؤلية ، فمثلا قد اطلعنا يوما ضابطا

نقطتى بوليس التل والقصاصين على دفترى أحوال النقطتين وفى إحدى صفحاته أمرا ذلك نصه : « من اليوم سعادة مدير المديرية ، وأمرنا بالقبض على الفدائيين وترحيلهم إلى بلادهم بعد مصادرة أسلحتهم » وقد أشر الضابطان عقب ذلك الأمر بتاريخ لاحق بالآتى : « بالبحث والتحرى عرفنا أن الفدائيين لايقيمون بالمنطقة وأغراب عنها . ولا يحضرون إلا بالليل من القاهرة حيث يهاجمون القوات الانجليزية ويعودوا بعد ذلك من حيث أتوا . ويتعذر خلال المعارك القبض عليهم نظرا لشدة نيران الطرفين » وأرسلت المديرية صورة من تقرير ضابطا بوليس التل والقصاصين إلى وزارة الداخلية « للعلم والتصرف » ومثل هذه الأوامر صدرت إلى ضباط بوليس سائر مدن القنال .. واتخذوا منها نفس تصرف ضابطا التل والقصاصين ، هذا وقد حدث بالقصاصين ، أن كنا على وشك الهجوم على جنود المعسكر حين أطلعنا ملازم أول أحمد فؤاد ضابط النقطة على أوامر الحكومة ورده عليها ، وأبى إلا أن يمعن فى تحديه ، فصحب جاويش النقطة وتزودوا بسلاحيهما الحكومى . وخاضا معنا معركة القصاصين ومن بعدها عاد الضابط وقد نفس قليلا بذلك عن مشاعره الوطنية التى كانت أوامر المدير قد أثارتها ، ومنذ تلك الساعة والضابط احمد فؤاد لم يترك معركة تخوضها أية فرقة للفدائيين إلا وكان يقاتل بين صفوفها ، كما كان له فيما بعد كفاح عظيم فى معارك التل الأخيرة . معارك يناير ١٩٥٢ ، وقد أبلغ الفدائيون المسئولين قرارهم بإطلاق الرصاص على مدير الشرقية

إذا ماشوهد بأرض التل أو القصاصين وكذا أعلن سائر الفدائيين السلطات المسئولة فى المناطق التى كانوا يقاتلون بها . أعلنوا أنهم سيصرعون أية قوة تحاول أن تقبض عليهم ، وكذلك قصد عبد الوهاب حسنى إلى وزير الداخلية محتجا على تصرفات المدير . وأبلغ الوزير أنه وزملاءه من أعضاء قيادة الفدائيين بالقاهرة لن يكونوا مسئولين بما قد ينال المدير من أذى إذا مامر بأرض المعركة لأن أوامره بدفاتر الأحوال طعنة للفدائيين من الخلف وتعاونا مع الإنجليز وخيانة للوطن ، ورغم أن المدير لم يكن سوى أداة تنفيذ لأوامر الوزير ، إلا أن هذا الأخير أدعى جهله بالموضوع واعتذر عن تصرفات المدير ووعد بعدم تكرارها ، ثم علمنا أنه قد استدعاه بالفعل وطلب منه التريث قليلا والكف عن محاولة تنفيذ الأمر السابق الصادر إليه .. لحين صدور أوامر أخرى لحين مواتاة الفرصة .. ولكن الفرصة التى كانت تنتظرها حكومة الوفد قد واتتها على عكس ماكانت تنتظر ، فقد كانت فرصة الفدائيين التى دفعت الحكومة إلى تغيير خطتها وقلبها رأسا على عقب .. ولكن فى حدود الخطة الأولى .. !

حافظ عفيفى يغير الموقف . . . !

فاجأ الملك الحكومة الوفدية بتعيينه حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى ، وكان فى تعيين حافظ عفيفى ، عدو الوطنيين وحليف الإنجليز الأبدى والذى كان قد صرح فى جريدة الإهرام على أثر إلغاء المعاهدة ، « أن إلغائها نكبة » ..! كان فى تعيين حافظ عفيفى يمثل الاحتكار

المصرى وحليف الاستعمار البريطانى وخادم الإقطاع المحلى ، والخصم التقليدى للوفد ، حزب الطبقة الوسطى ، كان فى تعيينه رئيسا لديوان الملك ، إيذانا بإقالة حكومة الوفد ، وتحديا من الملك لمشاعر الجماهير وإرادتها ، فغيرت حكومة الوفد من خطتها فى معركة القنال فأخذت تمول فرق الفدائيين ، وهى بذلك كانت ترمى إلى الضغط على الملك والإنجليز لتطيل أمد بقائها فى الحكم ، كما تركت المظاهرات الشعبية تجتاح القاهرة والأقاليم هاتفة بسقوط الملك وحافظ عفيفى ، وحين طلب الملك من الحكومة قمع هذه المظاهرات بالرصاص ، رفضت الحكومة حتى قمعها بالعصى والهراوات ، وتركت المظاهرات على حالها تهديداً للملك ورداً على تعيينه حافظ عفيفى ، كما رمت حكومة الوفد بمسلكها الجديد مع الفدائيين أن تسيطر عليهم ، حتى إذا ماشاءت وقف القتال فى أية ساعة تريدها كان ذلك ميسوراً وممكنا ، وكذا حتى لايفلت الزمام وتتحول هذه الفرق الشعبية المسلحة إلى القاهرة لتشهر فى وجه حماة النظام الحاكم أسلحتها ، وينقلب نظام الحكم رأسا على عقب ، من أجل ذلك استدعى سراج الدين كل من : وجيه أباظة ، عبد الحميد صادق ، عبد الوهاب حسنى ، وشرح لهم الخطة الجديدة للحكومة ، وسلمهم ماطلبوه من أسلحة وذخائر وعلى أثر ذلك ، حضر إلينا عشرون متطوعا من طلبة جامعة الأسكندرية ، وأصبح مجموعنا اثنى وأربعون مقاتلا ، وحمل فريقنا اسم كتيبة خالد بن الوليد .. ومما يجدر ذكره أن كان بين متطوعى الأسكندرية عاملان ، وبالإضافة إلى

عبده صانع الأحذية ، كان بكتيبة خالد بن الوليد عمال ثلاثة والباقون طلاب جامعيون .. ومن يومها دخل القتال فى مرحلة جديدة .. مرحلة خطيرة .. فإمكانياتنا قد ازدادت .. وتتزايد يوما بعد آخر ، ولم يكن من قبل ينقص معنوياتنا سوى سلاح قوى صالح وذخيرة وفيرة ، وقد جاء السلاح وتوفرت الذخيرة وتضاعف عدد الفريق ، فأهلا بالقتال .. وفتكا بالأعداء .

الرجعية تتآمر :

وقد حدث على أثر السلاح الجديد ، أن أعدت القيادة العامة بالقاهرة خطة هجوم على جنود نقطة تفتيش المحجر تتفق وإمكانياتنا الجديدة . وشرح لنا وجيه أباظة خطة المعركة المزمع خوضها .. والتى كانت تحتاج إلى ستين مقاتلا مزودين بمدافع البرن والإستن والقنابل والبنادق ، وكان هدف المعركة اقتلاع نقطة التفتيش هذه وأسر جنودها الأربعة والعشرون مع ضابطهم والإستيلاء على كل معداتهم وأسلحتهم ، والحق أن الخطة كانت محكمة دقيقة ، وأن وجيه قد استكشف استحكامات الأعداء ومعداتهم وعددهم طوال أيام ثلاثة ، تردد خلالها على القاهرة أكثر من مرة لموافاة بعض زملائه الضباط والفريق عزيز المصرى بنتائج استكشافاته التى على ضوئها كانوا يعقدون اجتماعات دراسية متوالية ، وذات مساء من ليالى ديسمبر الأخيرة توجهنا إلى منزل عائلة الأعسر بالقرب من بلدة العباسة ، حيث كان سينطلق الهجوم الكبير ، ولن أنس ذلك الاستعداد الضخم

وذاك الحشد من الفدائيين الذين جمعهم وجيه من مختلف الفرق ، لن أنس تجمع الفدائيين حوله فى ذاك المساء ببيت الأعسر ، وهو يوزع عليهم السلاح ويشرح لكل دوره وما كان عليه أن يقوم به فى تلك المعركة ، وكان يسلم كل مجموعة دليلا من الذين كانوا قد اشتركوا معه فى عمليات الاستكشاف ليرشد جنود المجموعة إلى مراكزهم بأرض المعركة ، وكانت هناك أربعة مجموعات مسلحة بالمدافع السريعة الطلقات .. كل مجموعة من ستة فدائيين ، تزحف جميعها نحو الخيام الأربع لجنود الأعداء .. كل مجموعة اختصت بخيمة منها ، تزحف هذه المجموعات تحت ستار الظلام إلى هذه الخيام .. حتى إذا ماوصلت إلى أبوابها انقض رجالها على من بها من جنود فيأسرونهم ويعودوا بهم إلى حيث كانت تنتظر العربات فى طريق التل ـ العباسة ، وكان على الباقين أن يوجهوا نيرانهم إلى جنود الاستحكامات المجاورة حتى يغطوا عمليات الأسر ، ثم تتقدم هذه المجموعات نحو جنود الاستحكامات من جميع الاتجاهات للإستيلاء على أسلحتهم وأسر من يكون على قيد الحياة ، وكانت الأسلحة متكافأة ، فكل مدفع برن بريطانى كان يواجهه مدفع برن فى أيدى الفدائيين . وكذا كل بندقية تقابلها بندقية مماثلة ، وهكذا كانت الخطة مضمونة النجاح وقد درست تماما وقتلت بحثا ، وكان ضمن المقاتلين ستة من ضباط الجيش حضروا خلسة بأسلحتهم ذاك المساء من القاهرة ، وفى الثالثة صباحا أعطى وجيه إشارة الهجوم ، وتحت جنح الظلام وخلف أستاره بدأ الزحف الكبير ، وكان الذين عليهم أن يرشدوا كل مجموعة إلى مكانها بالمعركة

من فريق الحزب الإشتراكى وأعضاء بالحزب المذكور . وقد ساروا بنا فى الأوحال والقنوات ساعتين . بينما كان المقدر من الزمن لتكون كل المجموعات فى مراكزها عشرون دقيقة ، وتاه الجميع سيما بعد أن اختفى هؤلاء الأدلاء ، وأصبحنا نضرب متخبطين فى متاهة مظلمة حتى فاجأتنا خيوط الفجر تنذرنا بقرب شروق الشمس .. فعدنا الواحد تلو الآخر إلى حيث كنا والسخط يأكل قلوبنا ويكاد يفجر صدورنا وفشلت الخطة ولم تنشب المعركة .

وقد أجل وجيه شن الهجوم ليلتين ريثما يستدعى بعض المقاتلين من فرق الإسماعيلية بدل الاشتراكيين ، ولكن فى الليلة التالية قام الفريق الاشتراكى بالهجوم وفق خطة وجيه ، وكان عددهم اثنا عشر مقاتلا .. اكتشف الانجليز زحفهم نحو استحكاماتهم ففتحوا عليهم النيران .. ولم يدم تبادلها أكثر من ربع ساعة .. ترك فدائيو الحزب الاشتراكى من بعدها مدفعهم البرن الوحيد غنيمة للأعداء !

ذلك أنه لما شرح قائد جناح وجيه أباظه الخطة لقادة الفريق الاشتراكى ، لعب الغرض فى قلوبهم ، فإن الخطة مائة فى المائة ناجحة ، وهى فى حد ذاتها عملية حربية عالمية ، كما أنها تهم المصريين الذين كانت تستفز مشاعرهم نقط التفتيش هذه والتى كانت كثيراً ما يعتدى جنودها على المواطنين الذين كانت تضطرهم ظروف معيشتهم أن يتنقلوا من وإلى مدن القنال ، فإذا ما قام بالهجوم الحزب الاشتراكى منفرداً فسيعود ذلك عليه بمكاسب سياسية عديدة ، وعلى ذلك طغت على

قيادة الاشتراكيين الذاتية فعملوا على فشل المعركة وتخريب الخطة كى ينفردوا بتنفيذها فى الليلة التالية ! وكانوا قد طلبوا من وجيه أن يقوموا بها منفردين وبعددهم القليل ، وعبثاً حاول إقناعهم باستحالة نجاح الخطة بأى فريق على حدة ، ودلل لهم أنه لابد من تعاون كل الفرق لأن العملية كانت فى حاجة إلى ستين مقاتلا مدرباً على مختلف تكتيكات حرب العصابات، وسبق أن خاض كل منهم معارك حربية مع الانجليز بأرض القنال ، وأن مصلحة مصر تحتم أن ننسى أشخاصنا وأحزابنا ولا نذكر سوى مصر وتتعاون جميعاً فى حرب الاستعمار ، فمصلحة مصر الانتصار فى المعركة ، ولن تنجح المعركة السابقة إلا بتعاون جميع فرق الفدائيين بالتل وبالجبهات المجاورة . . إلا أنهم فضلوا مصلحة حزبهم على مصلحة مصر .

وهكذا فشلت خطة اقتلاع نقطة تفتيش المحجر .. فشلت هذه الخطة إلى الأبد بعد أن تنبه الأعداء خلال هجوم الاشتراكيين فى الليلة التالية ، فضاعفوا من قواتهم واستحكاماتهم ، وسدوا الثغرة التى كانت سينطلق منها الفدائيون لاقتلاع مراكزهم . وفشلت الخطة .

البوليس السياسى يقود الفريق ..!

وحدث صباح ٥ يناير ٥٢ أن حضر إلينا بالتل كل من عبد الوهاب حسنى وتوفيق الملط وبصحبتهما اثنين من ضباط البوليس المتطوعين وقال عبد الوهاب وهو يقدم لنا زميلينا الجدد : « إن قيادة الفرق

سيتولاها ضباط ابتداء من اليوم » ، وأمر بتنحيتى وتولية ملازم أول بهاء الدين عمر خالد قائداً لفريقنا الذى أصبح يحمل اسم كتيبة خالد ابن الوليد ، ورحبت وزملائى أن يقودنا ضابط وإن كنا نفضل أن يكون ضابطاً حربياً لا بوليسياً ، إلا أن ما دامت تلك إرادة قيادتنا العليا ، فليس لنا إلا أن نطيع ونرحب ، وكان الضابط المتطوع الثانى هو ملازم أول مصطفى أبو دومه ، ورغم أن مصطفى كان أول دفعته وبرنجى نشان كلية البوليس ، إلا أن زميله هو الذى اختير قائداً عليه وعلينا ..! ، ويرجع سبب ذلك أن بهاء كان من الضباط الذين يثق فيهم وزير الداخلية فؤاد سراج الدين ، كان من ضباط البوليس السياسى وقد أخفيت عنا هذه الحقيقة ولم تتضح سوى بالقاهرة أثر فشل معركة القنال ..!

وبتعيين بهاء ضابط البوليس السياسى قائدا لفريقنا ، تكون بذلك حكومة الوفد قد خطت خطوات إيجابية للسيطرة على الفدائيين بتعيين قواد فرقهم من ضباط البوليس . والبوليس السياسى .. الذى كان تابعا لمخابرات الاستعمار الانجليزى !! والذى دائما كان ضباطه طوع بنان وزير الداخلية ، وزير الداخلية الذى كان لا يريد أن يفلت الزمام من يديه ، بل عمل على أن يبقى ذلك الزمام بين يديه ، كى يمكنه وقف المعركة فى أى وقت يريد ، مادام قواد الفرق من ضباطه . وخاصة ضباطه ..!

وكان تعيين ذلك الضابط قائداً لفريقنا ، أولى بوادر ما كان يدبر

فى القاهرة لوقف المعركة ، وبالفعل قام بهاء بعد أيام من تسلمه القيادة بسحب الفريق بكامل عتاده وسلاحه إلى القاهرة قبيل حريقها المشئوم بيومين اثنين على نحو ماسيرى القراء فى الصفحات المقبلة ، ولم يقف الأمر بوزير الداخلية عند حد الأهداف السابقة ، بل عمل على عزل الفريق عزيز المصرى من قيادة الفدائيين ، فقد عين بهاء قائدا لفرقتنا دون الرجوع إلى القائد الأعلى عزيز المصرى . وحين اكتشف عزيز المصرى وقائد جناح وجيه أباظه أن وزير الداخلية هو الذى أرسل بذلك الضابط لقيادة فريقنا بالتل الكبير ، وحين عرفا أنه ضابط البوليس السياسى ، فى الوقت الذى كان لدى عزيز المصرى أكداس من طلبات تطوع ضباط الجيش ، كانت الحكومة ترفض السماح لهم بالتطوع رغم شدة إلحاح عزيز المصرى لدى رجال الحكم الذين ألغوا المعاهدة ، حين اكتشف كل منهما ذلك إشتما رائحة المؤامرة ودب على الأثر الخلاف بين أعضاء القيادة التى انشقت على نفسها . عزيز المصرى ، وجيه أباظه ، مدحت عاصم ، عبد الحميد صادق فى جانب آخر ، وكان ذلك يجرى فى القاهرة خلال أيام يناير الأولى ، ولم نعرف شيئا عن كل هذه الخلافات ونحن بالميدان ، وكنا نحسب أن الأمور تسير على ما كانت عليه ، وكذا كنا نحسب أن بهاء ضابط بوليس وطنى ، هجر عمله وتطوع لمقاتلة الإنجليز . وأن عزيز المصرى قد عينه قائدا لنا ، وعلى ذلك الأساس رحبنا به وأخليت له مكانى ، ولو كنا قد علمنا بما حدث لأوقفنا القتال ولعدنا إلى القاهرة ولأمكننا

حسم هذا الخلاف ووقف مؤامرة حكومة الوفد للسيطرة على الفدائيين بل لو عرفنا أن بهاء ضابطا بالبوليس السياسى لطردناه فور وصوله أو لقتلناه لساعته ، إلا أن هكذا سارت الأمور ، وشاءت المقادير التعسة ، ومهما حاول أحد من الذين اشتركوا فى تعيينه قائدا أن يبرر ذلك قائلا إنه قد قاتل معنا جنبا إلى جنب : وكان بالفعل عرضة لأن يستشهد أو يجرح ، إلا أننا نقول لهؤلاء أن كل الإستعماريين يضعون على رأس جنود مستعمراتهم ضباط من جلدتهم ، والجيش الأردنى مثلا ، الذى كان الاستعمار قد وضع على رأسه قائدا عاما بريطانيا هو جلوب ، كما وضع على رأس فرقه ضباط انجليز ، كان هؤلاء يقودون الجنود العرب فى قتالهم للصهيونيين فى حرب فلسطين ، ونحن نعرف أن الإنجليز هم الذين أنشأوا وأمريكا دولة إسرائيل ، ورغم ذلك فقد قاتل الضباط الإنجليز جنبا إلى جنب مع الجنود والضباط العرب ، وكانوا عرضة لأن يستشهدوا أو يجرحوا ، ومع ذلك لم يقل أحد أنهم لم يقوموا بالمهمة الرئيسية التى كانوا مكلفين بها وهى إفشال المعركة وإلحاق الهزيمة بالعرب ، بالجنود الذين كانوا يقودونهم ..! ، لقد كان الضباط الإنجليز على رأس جيش خاض معارك فلسطين لتحريرها من صهيون ، ولم يوجد بعد واحد فى العالم يقول بأن الضباط الانجليز كانوا مخلصين فى قيادتهم ، وإنما أجمع كل السياسيون والرأى العام العالمى أنهم كانوا مخربين وكانوا يعملون لصالح الأعداء ، لإقامة إسرائيل وتوطيد دعائمها .

يس هناك من سبيل للسيطرة على جنود مقاتلة سوى أن يوضع لقيادتها أحد عملاء من يرمى إلى هذه السيطرة ، وإذا ماجرح أو قتل حل مكانه عميل آخر وهكذا ، فالمهم هو أن تظل الفرق فى قبضة وزير الداخلية ، وطبيعى إذا ماكان الوزير قد أصدر أمراً لبهاء ، ثم أصدر عزيز المصرى أمراً مضاداً ، فإن بهاء بداهة ينفذ أمر الوزير بل إن بهاء هذا لم تكن له أية صلة بعزيز المصرى ، وإنما كان يتبع وزير الداخلية مباشرة ..! على ذلك النحو ،كان الموقف فى أوائل يناير ٥٢ فى مطلع يناير الذى لم تكتمل أسابيعه الأربعة .. إلا وكانت المؤامرة الكبرى قد تمت .. وخلت القنال من الفدائيين ، وازدحمت بهم معتقلات القاهرة !!

معارك يناير :

كان شهر يناير ١٩٥٢ أمجد أيام الفدائيين وأبأسها معا ، ففيه دارت ألمع معاركهم وأقواها ، وخلال أيامه تحولت أرض القنال إلى ميدان حرب حقيقية ، فالمعارك تدور بالليل والنهار ، والخسائر تتلاحق على الإنجليز يوما بعد آخر . وخسائر فادحة ، وفيه أيضا ختمت أعمال الفدائيين ، وتوقفت معاركهم وانتكست حركتهم بعوامل الغدر والخيانة التى أثمرت فى مؤامرة ٢٦ يناير .. التى توقف بعدها القتال ولم يدم أكثر من مائة يوم .. من ١٦ أكتوبر حتى ٢٦ يناير المشئوم .

وإلى القارىء أنقل صورة لهذه المعارك التى دارت فى الجبهة التى كنت أعمل ضمن جنودها .

فى الساعات المبكرة من فجر ٥ يناير ، أغرنا على معسكر القصاصين وقد طوقناه من جميع جهاته ، وركزنا نيراننا على الاستحكامات المقامة فى أركانه ، وبعد ذلك دخلنا فى طور المعارك النارية المواجهة المعارك التى كنا والإنجليز نتقاتل فيها وجها لوجه ولا يفصل كل منا عن الآخر سوى أمتار قليلة لم تتجاوز يوما الستة أمتار .

معركة أبى صوير المحصنة :

توجهنا إلى بلدة أبى صوير مساء ٨ يناير حيث نزلنا بمركز قيادة فدائيى البلدة ، نزل الأستاذ عبد الحميد صادق ، وفى الواحدة صباحا أقمنا كمينا لاقتناص قوافل معسكرات أبى صوير — القصاصين — الاسماعيلية ، قوافل لم يكن يتوقف سيرها ، وحين مرت القافلة وتعرضت لنيراننا ، أمطرنا رجالها بما فى جعبتهم من نيران ، وشد من أزرهم ما حضر لنجدتهم من دوريات وفرق لواء المظلات ، وأسرعنا بالإنسحاب إلى بيت عبد الحميد فى الثالثة صباحا بعد أن أطلق الإنجليز علينا آلاف الطلقات ، وأردنا أن نتسلى وقد أوقفت قوات الإمبراطورية نيرانها التى استمرت ساعتين ظلوا بعدها صامتين فى مراكزهم ، وأردنا أن نتسلى بجزع جنود بريطانيا ، فكنا نرسل أحدنا ليطلق من بندقيته طلقة واحدة فى اتجاههم ، طلقة واحدة فقط يعود بعدها إلينا وقد جن الإنجليز فأخذوا يطلقون نيرانهم بكثرة جنونية تستمر ساعة كاملة يتوقفوا بعدها عن الضرب ، فيعود صاحبنا إلى قذفهم بطلقة أخرى تثير حمى رعبهم فيطلقوا نيرانهم من جديد وفى

كل جهة وبكثرة غريبة تنم عن شدة ما كان ينتابهم من رعب وفزع ، وكانت هذه الطلقات البريطانية تسيل ضحكاتنا وتسيل أيضا ذخائرهم.
وفى صباح اليوم التالى ٩ يناير ، كانت الخطة التى حضرنا إلى أبى صوير من أجلها معدة للنفاذ ، الخطة التى قام بتنفيذها فلاحو أبى صوير وطلبة جامعتى القاهرة والاسكندرية جنبا إلى جنب ، خطة أضخم معارك القنال ، قاتل فيها الفلاحون والطلاب والعمال صفا واحدا ضد قوات الاحتلال ، وجاءت نتائجها بارعة رائعة للفدائيين ، ومخيفة مفزعة لقوات بريطانيا .

بدأ العمل فى السابعة صباحا بأن أندمجنا وفلاحى أبى صوير وكنا بذلك ستة وثلاثين مقاتلا ثمانية عشر من فريقنا ومثلهم من فريق أبى صوير ، وهم جميعا خلاصة مقاتلى الفريقين وقسمنا الفريق إلى فريقين ، كل فريق من إثنى عشر مقاتلا ، ستة منا وستة من الفلاحين وتوجهت فرقة غرب أبى صوير إلى المحسمة بقيادة ملازم أول بوليس متطوع مصطفى أبو دومة ، بينما توجهت الأخرى شرقى أبى صوير بقيادة ملازم أول بوليس بهاء خالد ، وكنت من الفريق الأخير وكذا كان الشهيد عباس الأعسر ، وزودنا جميعا بالبنادق الألمانى واللى أنفيلد الانجليزية وبذخيرة وافرة ، وبجسر ترعة الإسماعيلية حفر كل مقاتل لنفسه حفرة صغيرة ليكمن فيها ولتحميه من النيران ، وكذلك فعل زملاؤنا بالمحسمة ، وعلى بعد مائة متر على جانبى كل كمين ، كمن إثنى عشر مقاتلا آخرون ، ثلاثة جانب لمناوشة وتعطيل فرق النجدة التى

كانت تسارع بالحضور إلى حيث المعركة لنجدة جنود القوافل التى تقع فى الكمين ، وفى تمام الثامنة والنصف وكل فى كمينه وقد اتجهت حواسه وتثبت نظره وتجمعت أعصابه نحو طريق المعاهدة الذى لم يكن يفصله عنا سوى خمسة أمتار عرض ترعة الاسماعيلية ، ومرت قافلة ولكننا لم نضربها بل توارينا داخل الحفر حتى إذا مامرت برزت رؤوسنا من الرمال لنرقب الطريق من جديد ، فقد كان الصيد المطلوب صيدا ثمينا ، صيد من ضباط معسكر طيران أبى صوير الذين كانوا يتنقلون بعرباتهم الزرقاء الفاخرة ، وفى التاسعة صباحا حضر الصيد خمسة عربات تقل ضباط الطيران وتتقدمها عربة جيب للبوليس الحربى بأجهزته اللاسلكية يتقدمها عربة مصفحة ثم تتبع العربات الخمس دبابة تشرمان ، وما أن توسطت هذه العربات الكمين حتى صببنا على رجالها نيراننا المتلاحقة فتعطلت جميع العربات وقد أصيب من كان بها ، وحين حاولت إحدى هذه العربات الزرقاء أن تفلت من الكمين بمضاعفة سرعتها ، كان الرصاص قد أصاب سائقها فاختلت عجلة القيادة واصطدمت بإحدى أشجار الطريق التى حمتها من الغرق فى مياه الاسماعيلية ، وقد لقى ركابها حتفهم وهم يحاولون مبارحتها فقد صرعتهم مئات الطلقات التى كانت تنهمر على الصيد من الكمين ، حدث كل ذلك فى دقائق سريعة بينما راحت العربة المصفحة والدبابة التشرمان تقذفا نيرانهما علينا والتى كان يستحيل أن تصيب واحدا منا لأنها من مدافع بعيدة المرمى وتضرب على مستوى مرتفع ، فمرت جميع نيرانها من فوق رءوسنا

ولم نشأ أن ننسحب بعد أن تعطلت عربات الضباط فقد واصلنا ضربها حتى إذا ما كان بها أحد الأعداء حيا أصابته طلقاتنا ، وحضرت خلال ذلك فرق من جنود المظلات أخذت تتوالى قواتها على ميدان المعركة وانتشر رجالها على طول خط النار وأخذوا يوجهون إلينا طلقاتهم ونحن نبادلهم بالمثل وحين كثرت إصابات جنودهم الذين كنا نسمع صرخاتهم ونشهد مصرعهم .. حضرت قوات مدرعة حتى أصبح الطريق مكدسا بدبابات السنتريون والتشرمان والعربات المصفحة ، بينما انتشر على الأرض جنود المدفعية الثقيلة والخفيفة وأخذت كل هذه الفرق وكل هذه الأسلحة تصب علينا نيرانها ، وفى نفس الوقت كان زملاؤنا بالمحسمة فى نفس الحال ويخوضون مع مثل ماأمامنا من قوات قتالا مريرا مروعا ، وكانوا قد شاهدوا ضابطا ضابطا تطل رأسه من برج إحدى الدبابات وعلى فمه وأذنيه جهاز اللاسلكى يدير منه المعركة فأحكم أبو دومة رصاصة نحوه فأصابه فى رأسه وصرعه فى الحال ، وقد اتضح بعد ذلك أن هذا الضابط لم يكن سوى « البريجادير متشر » القائد العام لسلاح الطيران البريطانى فى الشرق الأوسط حينذاك .

وفى فريقنا صوب « عواد » أحد الفلاحين رصاصة نحو فوهة مدفع دبابة ، وانطلقت رصاصته إلى حيث التقمت بقذيفة الدبابة داخل المدفع فانفجر وطار برج الدبابه وتناثرت أجزاؤها العليا بينما صرع جميع رجالها وتطايرت أشلاؤهم فى الهواء .

قصة استشهاد الأعسر :

وخلال وطيس المعركة كان الشهيد عباس الأعسر يترك حفرته أو دشمته الرملية الصغيرة ويزحف إلى الأمام حتى يلامس وجهه صفحة مياه الترعة وتقترب المسافة بينه وبين الأعداء مواصلا إطلاق نيرانه عليهم ، وكانت هذه مغامرة تعنى إصابته ، إلا أن الحظ حالفه فأخطأته آلاف الطلقات المجنونة وكان ذلك نتيجة سليمة من الوجهة الفنية ، فقد كان يضرب تحت ستار من نيراننا ونيران الأعداء ولم يكن ليصاب إلا إذا ما تنبه إليه أحد جنود الأعداء وأمسك سلاحه بهدوء وأحكم التصويب نحوه . . . ولكن الحال فى المعركة لا يحتمل تباطؤ وتصويب فى هدوء إنما سرعة فى الضرب وتلاحق فى الطلقات وتحتاج لمهارة كبرى للمقاتل كى يصيب من كان فى وضع عباس . . ولكن أنى للأيدى البريطانية المرتعشة أن تطلق النيران فى هدوء وإحكام . . لقد كانوا دائما يطلقون نيرانهم فى جنون ورعب وكان ذلك سبباً لعدم إصابة عباس فى مغامرته تلك التى تحتاج إلى جرأة وثبات . . ، ولم يكن يعود إلى حيث دشمته الرمليه إلا بعد أن يشتد عليه صراخنا . . ثم لم يكن يلبث بها سوى دقائق يعود من بعدها إلى حيث كان ، وقد استمرت المعركة طوال النهار ولم تتوقف النيران إلا فى الخامسة بعد الظهر ، وحدث أن نفذت ذخيرتنا فى نحو الساعة ولم يستطع أحد منا أن يسمع زميله أمام شدة أصوات رصاص وقذائف ومتفجرات نيران الإنجليز ، فقد كانوا يطلقون نيران مدافع البرن والفكرز والهاون

والميدان ومدافع الدبابات والمورتر وبنادق اللى أنفلد والإستن ، كلها كانت تضرب معاً وتطلق نيرانها فى وقت واحد ، ويمكن تصور حالة المعركة وأى منظر ذاك الذى كان وقد أمسكت أيدى ما يقرب من المائتى جندى وضابط بريطانى كل هذه الأسلحة لتجعل من بلدة أبى صوير الصغيرة أتونا مستعراً من النيران . .

وليدرك القارىء كيف كانت معركة أبى صوير هذه معركة حربية كاملة ، أننى لم أستطع أن أطل برأسى من حفرتى . . . فالشظايا والطلقات تتطاير من فوقها وحولها ولم أستطع أن أسمع صيحات زميلى بالحفرة المجاورة ، كما لم يستطع أن يسمع صيحاتى أحد عما إذا كنا ننسحب أم لا ، فقد أصم آذاننا صوت هدير الجحيم الذى انفتح علينا ، وأصبح الجو صارخا عاوياً بأصوات طلقات قذائف الأسلحة الجهنمية ، ولما أن اشتدت طلقات قذائف مدافع الميدان وتلاحقت ، أدركت مصيرى إذا ما بقيت هكذا داخل حفرتى ، فإن إطلاق هذا النوع من الأسلحة وبمثل هذه الشدة ، لا يعنى إلا تغطية زحف مقبل ، سيما وكنت قد شاهدت ضمن معداتهم قوارب من المطاط وكوبرى متحرك ، وكان أمامى أحد أمرين لا ثالث لهما ، وكان أمامى أحد أمرين لا ثالث لهما ، إما الاستمرار متوقعا بالحفرة حتى يحضر الأعداء ويأسرونى ، وإما المجازفة والإنسحاب بين تلك السحب من النيران ، وأسرعت بالخروج ملتصقا برمال الجسر كما يخرج الثعبان من جحره ، وفى ثوان كنت محتميا بسفحه وسرت نحو الغرب فإذا بى أجد «عم ابراهيم» ذلك

الفلاح الذى تعدى الأربعين ومع ذلك تطوع لمقاتلة الإنجليز ، وجدت « عم ابراهيم » ببندقيته الألمانى ، حائرا لا يعرف أين يتجه نحو الشرق أم الغرب ، وأخيرا أشار أن ننسحب شرقا وأسرعنا بالمسير ، وبينما نحن كذلك إلتقينا باسماعيل رضا طالب الهندسة ، عثرنا عليه وقد جلس بين كثبان الرمال محتميا بها من الشظايا والطلقات المتطايرة ، وقد وضع بندقيته على ركبتيه ولم يكن يعرف كذلك أين يتجه فى الإنسحاب ، فقد انسحب زملاؤنا ولم نعرف أى طريق اتخذوا ، وبعد مداولة قصيرة اتفقنا على أن يتجه اسماعيل شرقا فإن عثر على رفاقنا يعود ليصحبنا معه ، وانطلق يركض مابين الزحف والسير من شدة النيران ، وفوجئنا باقتراب الطلقات منا . ونظرت غربا فوجدت بيتاً صغيراً فوق الجسر ، فهتفت لصاحبى أن نختبىء به من الشظايا المتناثرة والطلقات المتدفقة . وأخذنا نصعد سفح الجسر زحفا ، وفجأة أصابت المنزل قذيفة مدفع ميدان غاصت به فى باطن الأرض لحظة ثم قذفت به فى السماء عاليا على نحو ماتفعل البراكين الثائرة ، وكان ذلك كافيا لأن يردنا إلى حيث كنا ، وحين هممنا بالإنسحاب فى إثر زميلنا ، فوجئنا بدفعات من طلقات البرن تصوب نحونا من الخلف .. من الغرب ، فقد عبرت إحدى فرق الأعداء الترعة وكمنت خلف أحد المصارف ، ولمجرد سماعى تلك الطلقات كنت قد ارتميت على الأرض ووجدتنى أزحف بلا وعى نحو الجنوب عبر الحقول وكانت قذائف الهاون تحلق فى السماء وتزرع

الحقول بالموت والدمار ، كنت أسمع صوت انطلاقها من المدفع ، ثم أراها قادمة محلقة فوق رأسى ويهز هوائها شعرى ! فأغمض عينى لأستقبل الموت ، فتسقط بجوارى أو بعيدا عنى بخطوات قليلة ويردمنى ترابها لأواصل بعد ذلك الزحف وتتوالى قذائف الهاون والاستعداد للموت ، وكنت أزحف كالدودة تماما تحفر يداى الأرض كما يغوص وجهى فى الطين والرمال محاولا أو داعيا الأرض أن تبتلعنى واستمررت على هذا النحو من الزحف وفوق رأسى بعدة سنتيمترات ستارا كثيفا من رصاص المرتر ـ الفكرز ـ البرن ، واضطررت أن أترك بندقيتى حين صادفتنى قناه صغيرة زحفت بها نحو كيلو مترين حتى بلغت مصرفا كبيرا يقطع المنطقة من الشرق إلى الغرب ومن خلفه سرت فى سلام إلى حيث كان زملائى فى انتظار المتخلفين فى الإنسحاب وكنت آخر من وصل منهم ولم يبق متغيبا سوى عباس الأعسر ، وقد عرفت أن بهاء كان قد أمره خلال اشتداد الضرب بأن يتجه غربا مائة متر ويطلق نيرانه على الإنجليز ليشغلهم قليلا بمناوشته لهم ، وذهب عباس وأطلق نيرانه فتحولت نيران الإنجليز نحوه ، وأمكن بالتالى لسائر زملائه أن ينسحبوا فى سلام ، بينما بقى هو حتى تلك الساعة عاجزا عن العودة إلى قاعدته ، واعتقدنا أنه قد استشهد ، وسالت دموعنا لرفيق شجاع ألقى بنفسه فى التهلكة كى ينجو زملاؤه ، وبينما كنا غارقين فى أحزاننا ، إذ بعباس يأتى إلينا بوجهه الباسم ، فاحتضناه مهنئين :

وبعد الغروب بقليل أوقف الإنجليز نيرانهم وكان الأهالى قد خرجوا من مخابئهم التى كانوا قد أقاموها خلف بيوتهم ، وهى عبارة عن فجوات ضخمة فى باطن الأرض غطوا سقفها بأكياس ممتلئة بالرمال كى يحتموا داخل هذه الفجوات أو المخابىء من الشظايات والطلقات ، ولما أن توقفت النيران خرجت كل أسرة من مخبئها لترى ما يكون قد أصاب بيتها من خسائر ، وأسرع شقيقان إلى منزلهما الذى كان قد أصبح أنقاضا وأحجاراً ، أسرعا إليه كى يلتقطا بعض ما قد يكون نافعاً ، وبينما هما سائرين فى إحدى القنوات الصغيرة فتح الإنجليز عليهما النيران فأردوهما قتيلين وقد أصاب كل منهما أربعون طلقة مزقت جسميهما فى وحشية كاسرة ، وحين أنبأتنا نقط المراقبة بتمام انسحاب الإنجليز ، تقدم عم إبراهيم الذى كان قد سلك طريق الانسحاب شرقا لإحضار بندقيتين فقصد إلى حيث كنت أزحف . فى الحقول فوجدها تبرق ماسورتها فى ضوء القمر وعاد بها إلينا وعلى فمه إبتسامة الفلاح الساذج والوطنى القوى ، إبتسامة تعنى أنه ما كان ليجوز أن أترك بندقيتى مهما كانت الأحوال ، وهـــذا قول حق فالسلاح فى عرف الفدائيين أثمن من الرجل ، لأن الرجال كثيرون والسلاح قليل .

وصافحنا رفاقنا من فلاحى أبى صوير مودعين ، وفى الصحراء أطلقنا بعربات الجيب عائدين إلى التل وأيدى الفدائيين الفلاحين تلوح لنا ، أيدى إبراهيم ، عواد ، سويلم والحجاج قاسم . وسائر إخوانهم الصناديد الأبطال .

وبصحراء المحسمة كانت طلقات الرصاص يطن أزيزها وتدوى أصواتها فى آذاننا وكان ذلك يعنى أن رفاقنا لا زالو يقاتلون وتوقفنا عن المسير وتداولنا فيما إذا كانت حالتنا تسمح بالاشتراك معهم أم لا وانتهى الأمر بأن من يجد فى قوته بقية تعينه على مؤازرتهم فليذهب إليهم ، وتركنا خمسة رفاق قصدوا إلى حيث اشتركوا فى معركة المحسمة التى استمرت حتى السابعة صباحا ، خمسة من المرهقين الذين ظلوا طوال النهار وليلة أمس يقاتلون ، وكان على رأس هؤلاء الخمسة الشهيد عباس الأعسر وكأنه يودع الحياة ويتزود بالقتال ويشبع رغبات شعب متعطش لمقاتلة أعدائه ، وكان عباس فى اندفاعه نحو معركة المحسمة وكتفاه لم ينفضا بعد غبار معركة أبى صوير ، كان فى ذلك مودعاً الحياة التى فارقها بعد ساعات . ، وقد سطر بدماه قصة البطولة والفداء ، قصة الاستبسال والإقدام ، والتضحية والإيجابية فى الوطنية . لقد كان عباس وشقيقه محسن يقاتلان الإنجليز جنبا إلى جنب . متسابقين على التضحية مترامين على الاستشهاد . ، كانا فرسى رهان فى ميدان الموت من أجل التحرر ، الموت الذى كان قد ائتمر بحياة عباس أكثر من مرة ونصب له شباكه فى كل معركة خاضها . . فى التل ، القصاصين، أبى صوير المحسمة ، ولكنه كان يقدم على القتال وهو يرى شباك الموت من حوله ويفلت من خيوطها بأعجوبة ، إلى أن تكاثرت الشباك وأصر الموت على أن يظفر به وكأنه قد ساءه كثرة التحدى ، فاختطفه من الميدان . . فى غير ما خطر . . وغير ما صعوبة . . فانقض عليه فى

غفلة منه ومن سائر زملائه الذين كانوا يفدونه بأرواحهم جميعاً انقض عليه ورماه بطلقات ثلاث شاء لها أن تسكن عنقه فأردته فى الحال وقد خضبت دماء رمال القنال ، فاختلطت بدماء أجداده التى سالت على نفس الأرض خلال معاركهم ضد نفس العدو منذ سبعين عاما . لقد كان عباس مثالا رفيعا للمواطن المصرى ، حبه لمواطنيه ملك عليه نفسه فلم يعد يرى فى دنياه شيئا سواهم . . ولم يكن يعمل إلا لهم ، . وعاش ومات من أجلهم ، . وهو من قبل ذلك وبعده ، الفدائى بكل ماتحتوى هذه الكلمة من معان رفيعة وقيم عليا . . ، والمقاتل الماهر فى قتاله . . ، والذى كان دائماً يتقدم صفوف زملاءه خلال المعركة ليدنو من الأعداء . فينشر بينهم الرعب ويوزع عليهم الموت . . ، حقا لقد كان إستشهاد عباس خسارة موجعة فاجعة للفدائيين جميعاً . . فبكته مصر وخلده شعبها ضمن من خلد من أعلام الحركة الوطنية ، وبين أبطاله البواسل الذين استشهدوا أثناء كفاحهم من أجل حرية مصر ورفاهية أبنائها . . ، وفى صباح ١١ يناير شيع أهالى الشرقية جناز الشهيد بين هتافات الجماهير وحماسهم . . ، وبينما كان عمال المقابر يهيلون التراب على جدث الشهيد ، أمسك بنا شقيقه محسن قائلا ، « والآن إلى الميدان هيا نغير على الإنجليز وننتقم لشقيقى ، وركب معنا العربة لنعود إلى التل ونواصل القتال . . ، إلا أن الحالة العصبية التى كانت تعترى محسن كشقيق فقد شقيقه . . ، ما كانت لتسمح له أن يخوض غمار معركة . ، فإن ذلك يعنى استشهاده هو الآخر ولم تجف بعد دماء أخيه . . ، كان

على محسن أن يستعيد هدوءه . أولا ثم يقاتل بعد ذلك . . ، وفى الغروب وصلنا إلى التل لنترك بعض زملاءنا فى حراسة قاعدتنا أو بيتنا ويسافر الباقى إلى الإسكندرية ، وقبيل السفر وجدت الشهيد أحمد المنيسى يبحث عنا طالبا تزويده ببعض المفجرات الكهربائية التى كانت قد وصلتنا فى الأسابيع الأخيرة وذلك للاستعانة بها فى المعركة التى كان فريقه قد أعد العدة لخوضها صباح اليوم التالى ، وبعد أن تسلم نحو ثلاث مفجرات غادرنا التل إلى الإسكندرية التى وصلنا فى الصباح وبعد نحو ساعة من وصولنا ، كانت جماهير طلبة الجامعة قد تجمعت حول مبنى كلية التجارة التى كان الشهيد ضمن طلابها ، وكذا أقبل آلاف المواطنين للاشتراك فى تشييع جناز صامت للشهيد . وسار الموكب يقل أهالى الثغر ، وبينما كنا نسير فى جناز الشهيد ، كانت تدور على أرض التل الكبير أضخم معارك القنال وأقواها . ، فحين انتهى موكب الجناز الصامت بعد الظهر بقليل ، قفلنا عائدين إلى التل التى وصلناها فى الغروب .

مؤامرة ٤ يناير بالسويس

وكتيبة أحمد عبد العزيز

المعروف أن الإستعمار كان يلجأ قديما عند انتفاضات الحركات الوطنيه فى البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة إلى إحداث التفرقة العنصرية بواسطة المؤامرات الدينيئة تطبيقا للقاعدة «فرق تسد» وما كنا نحسب أن الاستعمار البريطانى وهو أذكى استعمار على الأرض سيلجأ إلى هذه الحيلة فى هذه الفترة بالذات لانتشار الوعى الوطنى فى مصر ولأن هذه الحيلة فشلت عام ١٩١٩ عند ما جمع سعد زغلول عنصرى الأمة تحت راية واحدة هى راية الثورة من أجل الحرية .

ولكن الاستعمار لجأ إلى هذه الحيـــلة ليوقف اندفاع الروح الثورية الصاعدة على أرض القنال فاستغل هذه الأساليب العنيفة التى تفقد أثناء المعارك الوطنية وأمام الوعى الصاعد حيلتهـــا وقوتها وتنكشف أمام الجماهير الشعبية وتمكن القيادات الوطنية من تطهير صفوفها والسير فى طريق المقاومة والنضال وهذا ماحدث فى السويس فى ٤ يناير سنة ١٩٥٢ .

وكانت مؤامرة ٤ يناير تمهيداً للمؤامرة الكبرى ٢٦ يناير المشئومة وما أعقبها من إعلان الأحكام العرفية وفتح المعتقلات لاستقبال المكافحين الشرفاء والفدائيين الأبطال .

مؤامرة ٣ يناير :

فى يوم ٣ يناير ١٩٥٢ حاولت القوات البريطانية الهجوم على مدينة السويس فتصدت لها قوات الفدائيين ورجال بلوكات النظام واشتبكا فى معركة عنيفة تكبدت فيها القوات البريطانية خسائر قدرها راديو لندن وفايد ب ١٢ قتيل و ٥٠ جريح وحرق مصفحة ، وأذاع أيضا أن هذه المعركة كانت تقودها بعض العناصر المتطرفة التى حضرت من القاهرة وعلى رأسها أحد الضباط وكانو يستعملون مدافع سريعة الطلقات . وفى اليوم التالى أى يوم ٤ يناير والمعركة ما زالت مستمرة نفذ عملاؤهم الخطوة الأولى فى المؤامرة . وذلك بأن أحد عملائهم أمسك بشخص أثناء المعركة وأخذ منه مدفعه « الأستن » الذى كان يضرب به الإنجليز وأخذ يصيح ويستنجد بالناس لينتقموا من هذا الرجل الذى كان يضرب الفدائيين فى ظهورهم وأخذ يصيح ويهلل أنه خائن لا بد من حرقه . وبسرعة كان أحد معاونيه يسكب البترول فوق الرجل ويشعل فيه النار واحضروا هلب كالذى يستخدمه القصابون فى حمل الذبائح بطرفه حبل وادخلوا الهلب فى فم الرجل حتى نفذ من صدغه واخذوا يطوفون به شوارع المدينة مارين امام باركليز بنك الإنجليزى والكنيسة الإنجليزية أيضا ولم يحدث شيء . وعند ما اقتربت الجموع الثائرة من كنيسة الأقباط الأرثوذكسى . إرتفع صوت من بينها يقول إنه مسيحى أحرقوا الكنيسة فأخذوا يقذفون الكنيسة بالحجارة وبنفس السرعة التى حرق بها الرجل حرقت الكنيسة .

إن هذه الجموع لا تدرى ماذا تفعل إنهـا تنفذ أوامر قلم المخابرات البريطانى عن طريق عملائه المنبثين بينهم .

فشل المؤامرة :

عقب ماحدث فى الكنيسة تجمع المسيحيون واعتصموا داخل الكنيسة وأخذوا يهددون بالاتصال بالدول الأجنبية لحمايتهم من المسلمين . وأخذ بعض منهم !! يرددون شعارات عجيبة كالله فوق الوطن . الكنيسة فوق الوطن .. الخ وكذلك حدث هذا فى القاهرة والاسكندرية كاد الزمام أن يفلت وأن يكون ٤ يناير هو ٢٦ يناير المشئوم لولا يقظة أفراد كتيبة أحمد عبد العزيز وعلى رأسهم الدكتور عزيز فهمى ومصطفى كمال صدقى اللذان لعبا الدور الأول فى القضاء على المؤامرة وتهدئة خواطر إخواننا المسيحيين وكشف عملاء الإنجليز والتعهد بحماية أنفسهم وممتلكاتهم من أى اعتداء يقع عليهم . وأخذ بعض أفراد الكتيبة . منهم فاروق حافظ وهاشم شعبان بالخطابة داخل جامع الأربعين ومعهم بعض الشبان المسيحيين لينبهوا الجماهير الشعبية إلى مؤامرات الاستعمار العنصرية . كما ألقى الدكتور عزيز فهمى خطابا وطنيا أيضا داخل الكنيسة وألقى مصطفى كمال صدقى خطابا سرد فيه تاريخ المؤامرات الإنجليزية فى مصر ، وبذلك نجحت كتيبة احمد عبد العزيز فى القضاء على مؤامرة كنيسة السويس واستئناف المقاومة مرة أخرى فى حذر ويقظة لكشف أى مؤامرة يدبرها الاستعمار وأعوانه . والعجيب أنه اتضح بعد التحريات التى قام بها قلم مخابرات

الكتيبة وتحريات البوليس — وذلك بعد أن شيعت جنازة المجنى عليه فى مشهد رسمى إلى مقابر الأقباط — أنه مسلم وليس مسيحياً . ولم يكن يضرب فى الفدائيين بل كان يضرب الإنجليز .

لقد كان الفضل فى القضاء على المؤامرة لكتيبة أحمد عبد العزيز فما هو دور هذه الكتيبة وكيف تكونت ومن هم قادتها والمسئولون عنها .

كتيبة أحمد عبد العزيز :

تكونت هذه الكتيبة فى القاهرة فى شهر ديسمبر ١٩٥١ من بعض الشباب الوطنين من القاهرة والأسكندرية من طلاب جامعيين إلى عمال وتجار وضباط فى البحرية التجارية وكان يشرف على هذه الكتيبة الدكتور عزيز فهمى ومصطفى كمال صدقى والشهيد عبد القادر طه الضابطين بالجيش فى ذلك الوقت وكان يشرف عليها فى السويس فاروق حافظ وهاشم شعبان ومصطفى الجيار وكان أحد أعضائها مقاول كبير إسمه محب السباعى كان يقوم بدور المخابرات لناعن طريق رجاله المندسين داخل المعسكرات كما كان يقوم بنقل بعض الأسلحة بسياراته من القاهرة إلى السويس كما إنه وضع تحت تصرف الكتيبة منزله ومكتبه وسيارته بالسويس .

وهذه هى بعض أعمال الكتيبة كما يرويها أحد أعضائها الذين اشتركوا فى جميع عملياتها الحربية بالسويس .

أعمال الكتيبة

العملية الأولى :

وفى اليوم التالى لوصولنا أخذنا فى دراسة خريطة السويس وتحديد أماكن المعسكرات والمرافق العامة وخطوط المواصلات الخ. وانضم إلينا بعض شباب السويس وكان بينهم أحد الموظفين الفنيين بالسكة الحديد وفى اليوم التالى لانضمامه إلينا أبلغنا أنه وصلت إلى ميناء الأدبية سفينة انجليزيه بها أسلحة وذخيرة وسيذهب إلى الميناء . قطار يقوده بعض الجنود الإنجليز لينقل الأسلحة والذخيرة إلى المعسكرات الإنجليزية . وأنه من الممكن نسف هذا القطار ونسف مخزن الذخيرة أيضا . وقررنا فى هذا اليوم القيام بهذه العملية ، بعد تكليف زميلنا موظف السكة الحديد بالحصول على ميعاد قيام القطار وعودته والسرعة التى يسير بها عند دخوله المخزن المعد لحفظ الذخيرة وقام زميل آخر باستكشاف هذه المنطقة ومكان التحويلة الذى سنضع فيه الألغام وطرق الانسحاب وعندما تجمعت لدنيا المعلومات الدقيقة عن العملية وفى الوقت المحدد لها ذهب ثمانية زملاء لتنفيذ العملية وهى : وضع لغمين بشكل غير متوازى تحت قضيب القطار - التحويلة - قبل المخزن بحوالى ١٠٠ متر مع وضع فتيل بطىء الاشتعال بحيث يحدث الانفجار وتشتعل الذخيرة والمتفجرات التى بداخله أثناء دخوله إلى المخزن فيشتعل المخزن ، أيضاً هكذا كان تقديرنا للعملية . فوضعنا الألغام

وظللنا منتظرين الوقت المحدد لاشعالهما وعندما حان الوقت ذهب الزميل المكلف بأشعال الفتيل ونحن نرقبه من مكاننا وكل منا يحمل مدفعه على أهبة الاستعداد للزود عنه — ستر انسحابه — وجاءت اللحظة التى ننتظرها وأخذ القطار يقترب شيئاً فشيئاً إلى مكان الألغام وكل منا يسأل الزميل الذى أشعلها . متأكد ياحلمى من اشعال الفتيل فيهز رأسه علامة الإيجاب ولاينطق حرفا . وفى غمرة هذه الانفعالات سمعنا دويا قويا أعقبه آخر ورأينا القطار — يتأرجح يمينا ويساراً ويستقر على جانبه . لم تنفجر الذخيرة التي به ولم تصل الانفجارات إلى المخزن كما كان مقدراً لها . ولم يحدث أكثر من انقلاب القطار وقتل أحد الحراس . ويرجع السبب فى ذلك إلى ضعف الألغام وهنا بدأنا نفكر فى تقوية الألغام وحشوها بكميات أوفر من المتفجرات والديناميت . وأخذنا درساً . فمن الفشل نستمد النجاح .

العملية الثانية :

من أهم أسباب النجاح فى حرب العصابات — الحرب التحريرية — هو إضعاف معنوية جنود الأعداء . والماء بالنسبة للجندى فى الميدان هو الحياة . فكان لا بد أن نبحث من أين نحصل على الماء . فعلمنا أن وابور المياه الخاص بالمدينة به مواسير موصلة إلى خزان مياه كبير خاص بالمعسكرات الإنجليزيه . ولكي نمنع المياه عن المعسكرات فلا بد من نسف وابور المياه بأكمله ولكن بهذا العمل رأينا أن المياه ستنقطع عن جميع سكان المدينة . وأخيراً أقترح أحد الزملاء أن نقوم بنسف

الخزان الخاص بالمعسكرات وذلك لن يأتى بضرر على الوابور نفسه . اقتنعنا جميعا بالاقتراح وبدأنا فى التنفيذ . وفى الليلة التالية أعد اللغم المناسب وجاءنا الزميل المكلف بالاستكشاف بتقرير دقيق عن المنطقة التى بها الخزان وفى الساعة الثالثة صباحاً كان أربعة من الزملاء يحملون مدافعهم ومعهم اللغم وبقية المعدات . وفى الوقت المحدد حمل الزميل المسئول عن وضع اللغم الفأس والكريك وقام بوضع اللغم واشعاله وبقية الزملاء فى انتظاره . وبعد ربع ساعة رأيت شبحاً يزحف على الأرض ويأتى بحركة من فمه تشبه نقيق الضفادع . أنه زميلنا أتى بسلام وبعد دقائق سمعنا الانفجار وخزان المياه يتناثر فى الفضاء وكشافات الإنجليز تبحث عنا تارة فى السماء وأخرى على الأرض وصوت طلقات تدوى يميناً ويساراً ونحن منبطحين على الأرض زهاء الساعة إلى أن أتيحت لنا فرصة الانسحاب فأخذنا نزحف مسافة طويلة إلى أن وصلنا إلى منطقة الأمان فأخذ كل منا يعانق الآخر ويقبله فرحاً بنجاح العملية .

وانقطعت المياه عن المعسكرات أكثر من ثلاثة أيام إلى أن قامت فرقة المهندسين لإصلاحه . ولكننا لم ننقطع عن نسفه بعد إصلاحه أو تركيب غيره إلى أن أرسل قائد القوات الإنجليزية تهديداً إلى محافظة السويس يقول فيه . « إذا لم تكف عصابات الفدائيين عن نسف « الخزان » سنضطر إلى نسف الوابور وقطع المياه عن سكان المدينة» . ولكننا لم نأبه لتهديداته واستمررنا فى نسفه كلماسنحت الظروف .

المعركة الثالثة :

يقع عند مدخل السويس — القاهرة بلوك السكة الحديدية ، المتحكم فى الخطوط الثلاث الرئيسية وهى السويس — القاهرة ، السويس — الاسماعيلية ، السويس — الأدبية وعند اشتداد المقاومة استولى عليه الإنجليز وطردوا العمال والموظفين المصريين وقاموا بإدارته وحراسته لضمان استمرار تنقلات الجنود بين الإسماعيلية والسويس والمعسكرات القائمة بين هاتين المنطقتين . ولزيادة الحرص على هذه المنطقة أقاموا دشمتين للحراسة فى اتجاهين متضادين وبكل دشمة مدفع وبعض الجنود . وفى إحدى الليالى قررنا نسف إحدى الدشمتين ، وأخذنا فى دراسة العملية وما سيتبعها من خسائر وما سيواجهنا من صعاب للوصول إلى مكان الدشمة وكيفية نسفها وطريقة انسحاب الزميل المكلف بالنسف وبعد الإنتهاء قررنا انتخاب خمسة للقيام بها وفى الموعد المحدد حمل كل منهم سلاحه ومعداته وتوجهوا إلى مكان الدشمة ، وقبل الوصول إليها بحوالى ٢٠٠ متر أخذنا فى الإنبطاح والزحف إلى ماقبلها بحوالى مائة متر وأخذ كل منا موضعه وذهب الزميل المكلف بإلقاء القنابل داخل الدشمة بعد أن أشعل سيجارته استعداداً لإشعال فتيل القنابل — القنابل صنعت محلياً (كوز به مواد متفجرة وفتيل إشعال سريع) — وبعد دقائق سمعنا انفجاراً تلاه آخر وعلى ضوء الانفجارات شاهدنا إشلاء طاقم المدفع — الحراس — تسبح فى الهواء وطلقات المدافع تصوب علينا من بلوك السكة الحديد .

ومن فوق إحدى السيمافورات أخذ أحد الجنود فى إطلاق النيران علينا فرآه أحد الزملاء وتمكن من التصويب عليه فنزل يعوى ثم أصدر إلينا قائد العملية أمرا بالإنسحاب . وبعد الوصول إلى مكان الأمان لم نجد بيننا الزميل الذى قام بإلقاء القنابل على الدشمة فقررنا العودة للبحث عنه وقبل أن نتحرك رأيناه قادما علينا واضعا يديه فوق عينيه اللتين امتلأتا بالتراب على أثر انفجار القنابل .

معركة ٣ و ٤ يناير

العملية الرابعة :

فى صباح ٣ يناير وصلت إلينا معلومات تفيد أن هناك تجمعات من القوات الإنجليزية بمداخل السويس وأنهم يعتزمون احتلال المدينة فكان لابد أن نعد للأمر عدته كى لا نؤخذ على غرة ولا نتيح لهم فرصة المبادرة . وكانت هذه المعلومات أيضا قد وصلت إلى ضابط قوات بلوكات النظام الصاغ صادق الغنام فحضر لمناقشتنا فى وضع خطة واحدة للعمل مع قواته وقررنا تقسيم القوات الى أربع فصائل كل منها عليها حماية مدخل من مداخل المدينة الأربع . مدخل الهاويس . المثلث . الزيتية . طريق المقابر . وفى الواحدة بعد الظهر احتلت قواتنا هذه المواقع وبدأت بإطلاق النار على التجمعات الإنجليزية . وعندما سمع الأهلون اطلاق النيران أخذ كل منهم مايملك من سلاح وانضم إلينا واستمر اطلاق النار حتى السابعة مساء وظللنا مرابطين فى مواقعنا .

وفى الساعة الرابعة صباح يوم ٤ بدأت القوات الإنجليزية فى إطلاق النيران مرة أخرى فرددنا عليهم بأقسى مما كانوا يتوقعون . واستمر تبادل إطلاق النيران إلى مابعد الثامنة مساء . وتكبدت القوات الإنجليزية خسائر قدرها راديو لندن ب ١٢ قتيل و ٥٠ جريح وحرق مصفحة . وهذا نص البيان الذى أذاعه راديو لندن « وصلت إلى مدينة السويس بعض العناصر المتطرفة ومعها أسلحتها سريعة الطلقات واشتبكت مع قواتنا فقتل ١٢ وجرح ٥٠ وحرقت مصفحة » ووصفتنا إذاعة لندن بأننا عصابات . وفى أثناء هذه المعركة تمت مؤامرة حرق الكنيسة التى تكلمت عنها فى مكان آخر . وفى هذا المجال لا أنسى أن أحيى كفاح ونضال إخواننا السويسيين ورئيس نقابة عمال شركات البترول الذى بادر بإرسال انذار الى قائد القوات الإنجليزية بأنه إذا حاولت القوات الإنجليزية دخول السويس مرة أخرى سنقوم بإشعال النار فى جميع مصانع التكرير . والحقيقة أن هذا الإنذار من جانب رئيس النقابة كان له أثر كبير فى وقف الإعتداءات المتكررة من جانبهم لا خوفاً على قتل الأبرياء من المصريين ولكن خوفاً على انفسهم وعلى مصانعهم وفى الوقت ذاته معتمدين على عملائهم وأذنابهم فى إحداث مؤامرات أخرى من شأنها القضاء على حركة المقاومة التى تزداد اشتعالا .

العملية الخامسة :

فى منتصف يناير سنة ١٩٥٢ وبعد قيامنا بنسف الخطوط الحديدية

قام الإنجليز بعمليات نقل المواد التموينية من ميناء الأدبية مستخدمين عربات الكاميون فى نقل هذه المواد إلى المعسكرات . وفى أحد الأيام وصلتنا أنباء عن وصول أحد البواخر محملة بمواد غذائية وستقوم بنقلها إحدى العربات المزودة بالحراسة وذلك بين الساعة الثامنة صباحاً والحادية عشر .

وبعد دراسة العملية قررنا مهاجمة العربة عند رجوعها من الميناء . وفى الصباح المبكر ذهبنا إلى المكان الذى قررنا فيه تنفيذ العملية وقسمنا أنفسنا إلى ثلاثة مجموعات كل مجموعة خمسة أفراد وكل مجموعة تأخذ مكان يبعد مائة متر عن المجموعة الأخرى فى خط متوازى تحت الطريق الذى ستمر به العربة . وكانت مهمة الكمين الأول هو ضرب عجلات العربة من الخلف بعد مرورها من أمامه والكمين الثانى والثالث مهمتهم الانقضاض على العربة وأسر من فيها . وفى الوقت الذى مرت به العربة على الكمين الأول قام بالتنفيذ وتبعه الكمين الثانى والثالث واستولوا على العربة التى كانت تحمل بطاطس ولحمة محفوظة وأسر السائق والحارس .

وقبل أن يصل الفدائيون المدينة بغنيمتهم كان قائد القوات الإنجليزية قد اتصل بمحافظ السويس وهدده بضرب المدينة بالطائرات إذا حدث مكروه للجنديين البريطانيين .

وعند وصولهم استدعاهم المحافظ وضابط الاتصال المصرى . وأصرا على تسليم الجنديين إلى القيادة البريطانية . وبعد مناقشات

طويلة بين المحافظ وأفراد الكتيبة على تسليم الجنديين أو قتلهم اضطر الفدائيين لتسليم الجنديين إلى المحافظ وأخذوا هم العربة بما فيها من مواد تموينية وقاموا بتوزيعهـــا على المستشفى الأميرى وملجأ الأطفال فى المدينة .

قصة البيان باستنكار مظاهرات عفيفى :

عندما شعر فاروق بأن نهايته مرهونة بنجاح قوات الفدائيين فى القنال . وعند ما قامت المظاهرات فى الجامعات تهتف بسقوطه أخذ فى إرسال أعوانه لإغراء بعض ضعاف النفوس فى صفوف الفدائيين لكتابة استنكارات على صفحات آخر لحظة لهذه المظاهرات وكان مندوب فاروق فى هذه العملية هو مصطفى صادق عم ناريمان . وكان بين صفوفنا أحد ضعاف النفوس وهو مصطفى الجيار فاتفق مع مصطفى صادق على نشر بيان استنكار لمظاهرات الجامعة ووقعه باسم الكتيبة ونشر فى آخر لحظة .

وفى اليوم الذى نشر فيه حضر إلينا على الفور الدكتور عزيز فهمى ومصطفى صدقى لاتخاذ اللازم ومحاكمة مصطفى الجيار . فقرر الجيار بأن مصطفى صادق أقنعه بأن هذا العمل يخدم القضية الوطنية وليس العكس وأنه على استعداد لكتابة بيان مضاد ونشره فى نفس الجريدة . ورأينا كحل سريع للمشكلة أن يقوم بكتابة البيان المضاد . ويتضمن أن ما نشر هو رأيه الشخصى وأن الكتيبة تستنكر ما جاء فى آخر لحظة . وسرد

مقابلته لمصطفى صادق وإغراءه على نشر البيان باسم الكتيبة . هذا إلى جانب ما قرره مجلس التحقيق من اتخاذ إجراءات أخرى نحوه . ولم تساعدنا الظروف لنشر استنكار الاستنكار بالنسبة لسيطرة السراى على الصحف فى ذلك الوقت .

كما وقع محمد حسن « وهو الإسم الحركى » لوجيه أباظة على بيان مماثل بالنسبة لكتيبة خالد بن الوليد وكان هذا طبعاً تحت الضغط باعتباره ضابط فى الجيش فى ذلك الوقت تحت سلطة السراى .

المعركة بعد الثورة

كيف خطفت ريجدن ؟

كان شهر يوليه ١٩٥٣ ، شهراً عصيباً على جنود القوات البريطانية بالقنال .. فقد اشتدت خلاله عمليات الفدائيين التي كانت تديرها الثورة تلك الأيام للضغط على أعصاب المفاوض البريطاني .. والحق أن مفاوضات ذلك الوقت .. كانت شيئاً فريداً في تاريخ المفاوضات المصرية .. فبينما كان الطرفان يتباحثان في هدوء .. كانت هجمات الفدائيين المصريين على مختلف معسكرات الإنجليز تنشر في صفوفهم الرعب والاضطراب ..

وكانت حكومة لندن تعرف جيداً أن أصابع رجال العهد الجديد هي التي تحرك قتال الفدائيين وتديره ..

وقد فزعت القيادة البريطانية لنشاط الفدائيين المنظم .. وضاعف من فزعها .. عجز جنودها عن صد هذه الهجمات أو التخفيف منها .. فنزل رجال المخابرات البريطانية إلى الميدان .. وشنوا حملة واسعة من الاعتقالات بين مواطني القنال !..

وكانت هذه الاعتقالات تجري في قالب من الخوف وهستريا الحنق والغيظ .. فقد كانت تسير خفية العربات المدنية لرجال مخابرات ال س.ت.ت. ثم تتوقف فجأة أمام أحد مقاهي مدن القنال أو بيوتها .. وفي سرعة خاطفة ، كان ينقض رجال المخابرات البريطانية على أحد مواطني القنال .. وفوهات المسدسات مصوبة إلى رأسه .. تؤيدها مدافع البوليس الحربي السريعة

الطلقات .. والذى كان يسارع بتطويق المنطقة بأكملها .. وفى دقائق كانوا يختطفون ضحيتهم .. ثم يغادروا المكان قبل تجمع الأهالى .. وفى مكاتب المخابرات كان يدور تحقيق دقيق .. وتعذيب أليم للأسير المصرى لانتزاع أخبار الفدائيين .. ولم يحصل الإنجليز ولو على خيط بسيط يمكن أن يفيدهم فى القبض على الفدائيين . . فكانوا يلقون بضحيتهم فى سجون معسكراتهم يبطن الصحراء .. فى معسكر القرش وسجن الإسماعيلية .

وكانت هناك حرب خفية بين المخابرات المصرية والبريطانية بالقنال .. فبينما كان الإنجليز يعتقلون الوطنيين كانت السلطات المصرية تعتقل أعوان وعيون الإنجليز بالقنال .. وفى سبيل ذلك خاض ضباط مخابرات القنال المصريون أكثر من مغامرة .. كان أخطرها انتزاع الخائن « كنج صبرى » من أيدى إحدى القوافل الحربية البريطانية بطريق السويس الإسماعيلية ..

بداية القصة ..

فى القاهرة اجتمع بعض الفدائيين من طلبة الجامعة وتباحثوا طويلا فى أمر استخلاص زملائهم الأسرى فى سجون المعسكرات البريطانية ووقفت مدافع السجون فى قلب المعسكرات عقبة فى سبيل استخلاصهم .. وأخيراً اقترح البعض اختطاف جنود وضباط بريطانيا واتخاذهم رهائن ..

معتقل أهلى .

واستقر الرأى على أن يكون المكان الذى توضع فيه الرهائن البريطانية . بعيداً عن القنال والقاهرة وتطوع « أحمد حلمى » طالب طب ، بأن يجعل من عزبة والده بصحراء الفيوم ... معسكراً لاعتقال الجنود البريطانيين !...

وقد عهدوا إلى ببحث إمكانيات الاختطاف بمدينة الإسماعيلية ...

مهمة صحفية تتحول لمهمة حربية ..

وفى صباح الخميس ٩ يوليه ٥٣ اقترحت على الأستاذ إحسان عبد القدوس أن أسافر إلى الاسماعيلية لعمل تحقيق صحفى عن جرائم العدوان البريطانى... فوافق فى الحال ...

وسافرت إلى الاسماعيلية لأؤدى واجبى الصحفى ... وأقوم بالاستكشاف الذى كلفت به ... وقبيل الغروب بقليل ... وبأحد مقاهى شارع الثلاثين بالإسماعيلية ... كنت أجلس مع اثنين من معارفى ... سمير مينا وشوقى فارس اللذان كانا يعملان داخل المعسكرات البريطانية وكانا ضمن مصادرى الصحفية لأنباء ماخلف أسلاك المعسكرات ... وبعد أن ألقيا ما كان بجعبتهما من أنباء سألتهما عما إذا كان ممكناً أن أرى بعض وجوه رجال المخابرات البريطانية فى الأماكن التى يقضون بها أوقات لهوهم ...

وقد رحبا بذلك وصحبانى على الفور إلى حيث كان يقضى رجال المخابرات البريطانيـة أوقات فراغهم ... وإلى هنا كان كل تفكيرى ينحصر فى مجرد المعاينة والاستكشاف لإمكانية اختطاف جنود بريطانيا ... سيما إذا كانوا من رجال المخابرات ...

جوار قلعة الاستعمار ..

ووصلنا فندق « رويال أوتيل » ... وهو مصغر لفندق سميراميس بالقاهرة ... وقد ســاءنى موقعه بجوار القيادة البريطانية لقوات القنال ، بعمارة « أتاليو » بميـدان شامبليون ... حيث كانت توجد قيادة البوليس

الحربى الإنجليزى أيضاً وكانت الاستحكامات تحيط بكل جوانب مبنى القيادة البريطانية ... ومن بين أكياس الرمال كانت تطل فوهة مدفع فكرز ، مصوبة نحو باب الرويال أوتيل ! ...

ودخلنا هذا الفندق ، لأجد شرفته غاصة بالجنود والضباط البريطانيين...

وفى الطريق إلى القاعة الداخلية ... كانت مفاجأة الانتظار ... فقد التقيت بأحد أبناء الاسماعيلية الذين كنت هاجمتهم من قبل ضمن عيون البريطانيين فى القنال ، والذى كانت السلطات المصرية قد اعتقلته بتهمة التعاون مع الأعداء ... وأرسلت به إلى السجن الحربى بالقاهرة مع الخائن « محمود صبرى » ... وقد رحب بى صبرى عبد العال السروجى ... ترحيباً حاراً ... الأمر الذى أشعرنى بغير قليل من الحرج ... أن يرحب بى رجل نشرت عنه من شهور أنه جاسوس !...

وعلى إحدى موائد البار الأمريكى ... كانت المصادفة الثانية ... صديق قديم لم أره منذ الدراسة الثانوية ذلك هو اليوزباشى صلاح الدين حمدى ضابط الجوازات والجنسية بمدينة الإسماعيلية ... وجلسنا فى غمرة من الترحيب والأشواق ... ووجه السروجى إلى سمعى دفاعاً طويلا عن وطنيته وقال مؤيداً دفاعه أنه يغتال من جنود بريطانيا كل ليلة الكثيرين ... ثم أخرج مسدسه قائلا : « لقد قتلت لتوى منهم اثنين ... وهاك ماسورة الطبنجة ... إنها لا تزال دافئة من الطلقات » وأمسكت واليوزباشى صلاح بماسورة المسدس فوجدناها باردة ، وضحكنا ونحن نتظاهر بإحساسنا بشدة حرارتها !...

وقطع حديثى فجأة سمير وهو يسر فى أذنى ، بأن الجنود الثلاثة الذين جلسوا أمام « اللونج بار » من رجال المخابرات ... ثم عاد أدراجه إلى

حيث كان يجلس زميله ... واختلست النظر إليهم ... كانوا ثلاثة يرتدون الملابس المدنية ...

وفجأة قفز فى ذهنى خاطر سريع ... أن استغل حماسة صبرى السروجى وتدليله على وطنيته ... فأطرق الحديد وهو ساخن كما يقولون ... وسألته : « أنت شاب ثرى ... وتملك بدل العربة عربات ... وتقول أنك وطنى ... فلماذا لاتعمل مع الفدائيين من أبناء القاهرة والذين هم فى حاجة إلى بعض إمكانياتك لنجاح عملياتهم ضد الإنجليز» ؟ فأبدى حماساً وترحيباً ... قلت : « لماذا مثلا لانقوم بعملية الليلة » وأجاب موافقاً قلت : « إذن لنخطف أحدهم من هنا » ...

رجلان يدخل الشباك ..

وقمت لتوى وجلست بجوار الجنود الثلاثة الذين كانوا يحتسون البيرة .. وراعيت أن يكون مقعدى باللونج بار بجوار مقعد أحدهم الذى كان يجلس بعيداً عن زميليه قليلا ... وأمكننى بسهولة أن أتحدث إليه ثم طلبت له شراباً تحية معرفة جديدة ، وأسرعت بدعوته للجلوس معنا على المائدة ... فاستجاب بلا تردد ...

وجاءت جلسته فى مواجهة اليوزباشى صلاح وبينى وبين السروجى ... وقلت لصبرى بالعربية : « هذا صيدنا هذه الليلة » ... وسألنا الجندى البريطانى عن أسمائنا ... فقدمت نفسى بإسم مستعار وبوظيفة وهمية ، مدرس بالإسماعيلية أما صبرى فقدم نفسه باسمه الحقيقى وبمهنته كمقاول ... وأخرج حفنة من أوراق البنكنوت الكبيرة من جيبه تدليلا على شخصيته وليشيع الاطمئنان فى قلب صيدنا الذى وقع فى الشباك ... وسألته بدورى

فقال عن اسمه « أنتوني ريجدن » وقهقه صبرى عالياً وهو يقول بالعربية :

— قطعاً إسم مزيف ... إنه من المخابرات ، ولا يمكن أن يقول إسمه الحقيق ببساطة ! ...

ودعوناه للنزهة بالمدينة ... فرفض ... وحاول صبرى إغراءه بعربته الجميلة ، ولكنه أكد رفضه ... فطلبنا له مزيداً من الشراب ... ثم كررنا الدعوة ... إلا أنه كرر الرفض ... والرفض بإصرار ...

ولم يكن هناك مزيد من الوقت ... فسألت صبرى عن عربته وعما إذا كانت جاهزة كما اتفقنا عليه ... فقال : « إنها بالباب ... سأذهب لأدفع الحساب . وتكون قد نقلته إلى العربة » ، وقصد صبرى إلى حيث كان يجلس جورج على « الكيس » بجوار اللونج بار ... وجورج هذا هو صاحب الفندق والبارمان فى وقت واحد ...

دسست يدى فى جيب سترتى الداخلية ، وأمسكت بالطبنجة الصغيرة التى كنت أحملها ومن تحت السترة وضعت فوهتها بإبطه الأيسر ، بينما تأبطت ذراعه بقوة ، وهمست فى أذنه وفوهة المسدس تداعب عظام جنبه من خلف الجاكتة : « إن الفندق مشحون بالفدائيين المصريين ... فى كل ركن ، وخلف كل مقعد ... فدائى مسلح ... تعال معى فى صمت ... تنجو بحياتك وإلا أفرغت فى جنبك الرصاص» ، ولم أعطه الفرصة ليفكر ، بل رفعته بكتفى .. فنهض مستسلماً ، وقد انهارت أعصابه ... ولم يكن بصالون اللونج بار سوى جورج صاحب الفندق والمشغول فى إعداد الحساب لصبرى ، ويوزباشى الجوازات الذى انصرف لتوه ، ثم سمير وشوقى الجالسان على مائدة مجاورة وقد فغرا فمهما ، وكأنهما يشاهدان فيلماً سينمائياً مثيراً ...

أما الجنديان الآخران ... فكانا قد انصرفا من زمن إلى حيث بقية زملائهما بالشرفة ...

الموت لك إذا نطقت !.

انهار الجندى البريطانى .. وأستسلم تماماً .. وصمت صمتاً كاملاوكأنه فقد النطق .. وكان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلونا رمادياً . وسرت به وقد ألقى ببعض حمله على كتفى .. وخرجنا من البار إلى الشرفة المزدحمة برجال الإمبراطورية ، وسرنا من بينهم وتركنا صديقينا تمل أحدهما من الشرب بينما كانت ترن فى سمعه كلماتى الهامسة فى أذنه « ولا كلمة .. الموت لك أن نطقت » .. وفى دقائق كنت أمام عربة مكشوفة وجهة .. وأسرعت باعادة المسدس لجيبى الداخلى .. وفتحت باب العربة بيسراى .. بينما لم تفارق يمنى ذراعه ، وبالمقعد الأمامى جلس كلانا على نحو ما سرنا به بعد أن عادت فوهة الطبنجة تداعب جانبه من خلف سترتى .. وعقب ذلك حضر صبرى على عجل وأمسك بعجلة القيادة ، وفوجئت بسمير وشوقى يقبلان على عجل ويأخذان مكانيهما بالمقعد الخلفى قفزاً دون أن يفتحا الباب .. ودون أن يستأذنا من أحدنا ..

وكل هذا والجندى البريطاني صامت فى جلسته .. ومن بين الاستحكامات مرت العربة مسرعة .. ثم عرجت يسرة نحو « عرايشة مصر » الحى الخالى من الإنجليز ، بعيداً عن حى الأفرنج الزاخر بالمنشئات والثكنات البريطانية حيث توقفنا بمنزل صبرى وبالمنزل جلسنا جميعاً فى غرفة المكتب .. يتوسطنا أنتونى ريجدن ..

بدأ ريجدن يجرب معنا حيلة ساذجة للهرب . فسأل كل منا إذا ما كان

كاثوليكيا . . ولما تظاهرنا بذلك أقسم بأنه إذا ما تركناه لحال سبيله فإنه سوف ينتظرنا داخل المعسكر الليلة التالية .. وعلينا أن نتسلل إليه حيث يحملنا بكثير من الأسلحة يسرقها من مخازن المعسكر .

وكانت هذه حيلة ساذجة . مبعثها أنه كان حتى تلك اللحظة معتقداً أنه سيقتل بأيدينا .

وأدخلنا على قلبه شيئاً من الاطمئنان . . وقدمنا إليه بعض الفاكهة الشرقية من البطيخ والشمام والعنب وخلال ذلك انتحى بي صبرى على حدة ليقول : «ما الذى ستفعله الآن بذلك الإنجليزى» قلت : «نأخذه إلى القاهرة»

قال : « تلك جناية نسجن فيها مؤبداً » . .

قلت : « من هذه الناحية اطمئن » .

وسحب فيشة التليفون من المكتب واستأذن فى الذهاب إلى غرفة أخرى ، واتصل بأحد معارفه الضباط وقص عليه كل شىء بتفاصيله وأسرع الضابط الشاب يوزباشى عبد الفتاح أبو الفضل فى طلب حضورى وصبرى والجندى البريطانى إليه سريعاً ..

وصرخت فى صبرى من الغضب إذ اعتقدت أن الضابط المصرى سيقوم بتسليمه للقوات البريطانية ، وكان سمير وشوقى يسمعان ما يجرى بيننا .. وحين تركنا صبرى لإعداد عربته .. حذرنى هـذان الشابان بألا أصحب صبرى ، إذ أنهما يقطعان بأنه قد اتصل بالمخابرات البريطانية وأنه سيأخذنى ليسلمنى إلى رجالها ، وعاد صبرى ليقول « علينا أن نتخلص سريعاً من هذين الشابين فأنى أعرفهما يعملان فى قلم المخابرات البريطانية » ! !

وخرجنا إلى حيث العربة وطلب صبرى من سائقه أن يوصل «البهوات» سمير وشوقى إلى منزلهما ، وطلب منى أن أصحبه والجندى البريطانى فرفضت

وفضلت أن أنتظره بمسكنه ليعود به بعد استجوابه إن كان صادقا . . وقبل أن تنطلق العربة بصديقاى قلت لهما :

« إذا لم أعد إليكما حتى السادسة صباحا يكون صبرى قد سلمنى للانجليز وعليكما أن تتصلا تليفونياً بالأستاذ إحسان عبد القدوس لإخطاره بذلك » .

وكان صبرى قد أخذ سبيله إلى قلم المخابرات المصرى بصحبة ريجدن وكان يغلب على الشك فى صحة مقصده بينما قصدت العربة الأخرى بمن أردنا التخلص منهما إلى بيتهما ، وبقيت وحدى بالمكتب . . وألقيت بوجهى على كفى . . ثم تيقظت فجأة لأسرع بالخروج والاختفاء بزقاق مجاور . . حتى لا تحدث الكارثة التى كنت أتوقعها .. أن يحضر البوليس الحربى البريطانى ليقبض على . ولشد ما كانت المفاجأة . . أن عادت عربتان . . وتوقفتا أمام المكتب . عربة صبرى التى نزل منها ينادى على . وعربة « جيب » للجيش المصرى يقودها جندى مصرى . . وخرجت من مخبأى والتقينا ، وكان ريجدن بعربة الجيب فنزل منها وغادر الجنود المصريون المكان عائدين إلى معسكراتهم .

وكانت الساعة الثالثة والثلث صباحا . ولم يكن بالمكتب سواى وصبرى وريجدن . . واستقر رأيى على أن نغير المكان سريعاً . . خشية أن يبلغ سمير وشوقى عن الحادث ويدهمنا الإنجليز فى مكاننا ويفتكون بنا ، وبسرعة كنا نتنزل شقة بعيدة فى نهاية عرايشه مصر . وتركت صبرى مع ريجدن ليحضر بعض رجاله من الذين كانوا يسطون على المعسكرات البريطانية ليكونوا فى حراسة المنزل ، وقمت بتفتيش ريجدن للتأكد من شخصيته ولكنه كان خالياً من أية ورقة على الإطلاق . . ومن أية نقود أيضاً . . مما جعلنى أجزم بأنه من رجال المخابرات حقاً .

وقال : « إسمى أنتونى ريجدن . . جاويش طيار بسلاح الإشارة بمعسكر

فايد . . أمى إيطالية الجنس ووالدى إنجليزى ، جندت إجبارياً . . ورحلت إلى مصر بالأمر ، وتجبرنا حكومتنا على احتلال بلادكم رغم إرادتكم وإرادتنا نحن الجنود البريطانيون » .

وكان حال ريجدن عقب زيارته للضابط الوطنى المصرى أحسن بكثير من قبل أن يزوره أو يمثل أمامه .. لقد اطمأن عندما قابل الضابط إلى أن حياته لم تعد فى خطر . وانطلق يتوسل إليه أن لا يجعله يعود إلى الجيش البريطانى : ! وسيقيم معنا فى القاهرة . وطلب منى أن أقابله برئيس الوزراء المصرى لعرض خدماته على حكومة مصر ضد قوات بريطانيا بالقنال . . .

لقد خرج من عند الضابط المصرى ومعنوياته قد ارتفعت . . ولم تعد تراوده فكرة اغتياله التى كانت تزعجه كثيراً وتسيطر على تفكيره . .

وكتب ريجدن فى وثيقة بأنه قابلنى مصادفه بالإسماعيلية ، ورجانى فى مساعدته للوصول إلى القاهرة وأننى قد أستجبت مشكوراً ! لرجائه ذاك ! ! .

وكان أمر تجنب نقط التفتيش البريطانية أمراً غاية فى السهولة . من الخبرة الطويلة منذ معركة القنال الماضية .

واستأذنت صبرى قليلا . . حيث قصدت إلى كل من سمير وشوقى اللذان وجدتهما ساهرين وطمأنتهما — للتضليل — أنه لم يقبض على وأن الجندى البريطانى سندعه يعود أدراجه إلى معسكره ، لخطورة المغامرة . .وفى السادسة صباحاً كنت مع صبرى وأمامنا يجلس ريجدن فى انتظار الرحيل . . وكان على أن أقوم ببعض ما كنت قد حضرت من أجله أصلا إلى الإسماعيلية من أجل التحقيقات الصحفية عن جرائم العدوان الإنجليزى على أهالى القنال .. على أن الحق به فى الظهر . وتواعدنا على اللقاء بفندق كنجز بمعتقل الفيوم ..

أين ريجدن

وفى الواحدة ظهرا وصلت القاهرة . وأخـــذت طريقى إلى دار «روزاليوسف» وكان هناك احمد بهاء الدين وعميد الإمام . وسألانى ضاحكين عن مفاجآت الرحلة .

فأجبت ضاحكا . انى قد أحضرت الريبورتاج المطلوب ومعه جندى بريطانى !!..

مفاجأة الانذار البريطانى

كان ذلك ظهر الجمعة ١٠ يوليو .

ونمت ليلتى تلك مرهقا .. واستيقظت متأخرا .. وأعطيت لنفسى عطلة طوال نهـار السبت ١١ يولية .. وفى المساء قصدت إلى مشاهدة عرض سينمائي فى حفلة التاسعة والنصف ، وفى الثانية عشرة والنصف عدت إلى منزلى حيث فوجئت ببعض أهالى الحى متجمعين حول مذياع الحلاق ، وقد علت وجوههم سحابة من غيظ ووجوم ، ونادوا على بمجرد أن رأونى ليسألونى عن الخبر كصحفى اعتادوا أن يتلمسوا منه ماغمض عليهم من أخبار ، وفى هذه المرة كانت المفاجأة أن يكتشفوا جهلى بالنبأ الخطير الذى وقع على نفسى كالصاعقة ، نبأ الإنذار البريطانى الذى قدمه الجنرال « فستنج » للحكومة المصرية على يد وكيل محافظة القنال بالإسماعيلية ، يطلب ظهور الجاويش الطيار أنتونى ريجدن خلال ٤٨ ساعة ، وإلا تكون الحكومة المصرية مسئولة عما يحدث لأهالى الإسماعيلية !!

وفهمت من الإذاعة أن الحكومة المصرية قد قابلت هذا التحدى بتحدى أقوى منه !!

وبمجرد أن سمعت صيغة الإنذار ، أدركت لأول وهلة ومن الطريقة التي كتب بها ، أن تفاصيل اختفاء ريجدن في أيدي الإنجليز كاملة وإنها قد وصلتهم نهار ١٠ يوليو ، أي غداة اختطاف ريجدن ، ولم يمض على اختفائه عدة ساعات ما كانت لتزعج سلطات بريطانيا بالقنال ، فكم فر جنود بريطانيون ، وكم اختفوا من معسكراتهم أياما طويلة ، ولم يقدم فستتج احتجاجا واحدا ولا إنذاراً شديد اللهجة كذاك الذي قدمه صباح ١١ يوليو . لا بد أن الأمر قد نقل اليه ، وبتفاصيله كاملة ، فمن الذي أبلغ الإنجليز ؟

لابد أنه سمير أو شوقي ، وقد اعتقلتهم السلطات المصرية بالفعل ، وبعد تحقيق طويل أفرجت عنهم

وبقية قصة ريجدن معروفة .

لقد عاش في القاهرة فترة ، كان خلالها سعيدا جداً ، ثم طلب أن يرحل إلى باريس ، حيث ظهر لأول مرة منذ اختفائه هناك .

أما عن شعوري وقت أزمة الإنذار البريطاني ، فهو : ترى ماذا كان مصيري لو لم تكن حكومة الثورة هي التي تحكم مصر ، لو لم تكن حكومة الثورة هي التي توجه نشاط الفدائيين الأكبر في القنال ؟

٢٠ أبريل سنة ١٩٥٦

إلى هنا ينتهي الكتاب كما كتبه المؤلف ولكن جدت على مصر أحداث خطيرة وهي تأميم قناة السويس وما تبعها من تهديدات الإستعمار لذلك رأينا أن نشير إلى هذه الأحداث التي تمر بلادنا فزدنا فصلا آخر عن التأميم وعن حرب العصابات من الناحية النظرية وتكتيكاتها لكي تقوم دار السلام بواجبها في المعركة بتقديم دروس نظرية وعملية يستفيد منها الشعب في نضاله ضد الإستعمار إذا فكر في أي عمل إنتحاري أو هاجم بلادنا .

تأميم قناة السويس وضجة الاستعمار

فى ٢٦ يوليه ١٩٥٦ عقد مؤتمر كبير بالإسكندرية حضره نصف مليون من المواطنين لسماع خطاب خطير يلقيه رئيس جمهوريتنا الفتية ردا على مؤامرات الإستعمار بخصوص السد العالى ورفض الدول الغربية تمويل المشروع لأسباب عجيبة ولكنها تتفق مع طبيعة الاستعمار فى تزييف الحقائق .

لقد رفض الاستعمار تمويل مشروع السد العالى لأن السياسة المصرية تسير فى اتجاه لاتطمئن معه مصالح الغرب على نفسها ولأن حالة مصر المالية لا تشجعهم على الاشتراك فى هذا المشروع ثم لأن هناك دولا أخرى لها مصالح قد تتعارض مع هذا المشروع .

لقد حدد الاستعمار موقفه إذا بالنسبة لمصر بعد موقفها الرائع فى مؤتمر بريوني وأراد أن يوجه إلى رئيس جمهوريتنا لطمة تمهيداً لشيء آخر .. خطير .

لقد لجأ الإستعمار إلى أحط الوسائل إذ هاجم صراحه فى بيانه ذاك السياسة المصرية الحيادية السلامية كما شكك فى الميزانية المصرية وقدرتها على تسديد دين البنك الدولى وكانت هذه مغالطة صريحة للواقع كما عمل لإشعال فتنة بين مصر والسودان وأوغندا والدول التى سماها بأن لها مصالح قد يحرمها منها السد العالى لو تم بناؤه .

وبسرعة فائقة أطفأت حكومة السودان الفتنة عندما أعلن شعب السودان على لسان رئيس وزرائه مدى تأييده لمصر وعدم وجود أى خلاف بين مصر والسودان خاصا بهذا المشروع .

وعقد مؤتمر الاسكندرية وألقى فيه الرئيس خطاباً جامعاً رد فيه على الاستعمار مفنداً خططه ومزاعمه ثم كشف الستار عن موقف أمريكا وانجلترا

بعد قصة الأسلحة المستوردة من المعسكر الشرقى وكشف عما دار بخصوص السد العالى وموقف البنك الدولى والمؤامرة الكبرى على حرية مصر واستغلالها ثم ربط بين شروط البنك الدولى لتحويل السد التى حملها يوجين بلاك وبين شروط الشركة التى حفرت قنال السويس وموقف ديلسبس من مصر عندما أعلن شروطه المجحفة على خديوى مصر فى ذلك الوقت .

وتحدث رئيس الجمهورية عن قصة قناة السويس من أول يوم إلى الآن . تحدث عن أجدادنا الذين ماتوا فى حفرها وعن المؤامرات التى دبرت من الشركة وعن أموالها وعن مكاسبها ومواقفها من مصر . كما دلل بالوثائق والمستندات على مصرية هذه الشركة ، وفى نهاية حديثه أعلن باسم الشعب المصرى فى صلابة وقوة تأميم شركة القناة ، وأنها أصبحت ملكا لمصر ولشعب مصر ليبنى من إيرادها السد العالى وكل المشروعات الهامة فى بلادنا كما أعلن أثناء خطابه أن هناك إخوان لنا مصريون يتسلمون الشركة وجن الشعب فرحاً كما جن الاستعمار غضباً . فما كان يتوقع أبداً هذه الخطوة من مصر .

الضجة الكبرى

وقامت الضجة الكبرى كما سماها الرئيس جمال فى عواصم العالم الحر . . : تحركها الاحتكارية العالمية والرأسمالية الأوروبية الأمريكية فكانت التصريحات الخطيرة تتساقط من أفواه زعماء العالم الغربى فى كل لحظة مهددة منذرة متوعدة ، وأعدت الأساطيل والبوارج ، وسحب الاحتياطى من الجنود فى دول الاستعمار ، وهاجمت الصحف الصفراء التى يحركها أصحاب الشركات فى عواصم الغرب ، وأخذت تسب عبد الناصر والشعب المصرى بأقذر النعوت والأوصاف .

ولكن عبد الناصر ظل ثابتاً كالطود راسخاً كالجبل فقد تمثلت فيه قوة الشعب المصرى وصلابته فلم يبالى بكل ذلك وأعلن بإسم الشعب الثائر أن مصر على استعداد للدخول فى أى معركة دفاعاً عن حقها وكرامتها ،

وكانت مظاهرات الشعب المصرى هى أبلغ دليل على تمسكه بحقه ووقوفه صفاً واحداً خلف حكومته الوطنية .

مؤتمر لندن

ولما لم يتراجع عبد الناصر إزاء هذه التهديدات والأنذارات اجتمع سدنة الإستعمار وممثلى الرأسمالية والإحتكارية العالمية فى لندن : دالاس ، وإيدن وبينو ، وقرروا عقد مؤتمر فى لندن من ٢٤ دولة تحضره مصر لبحث هذه المسألة وإتخاذ قرار يضمن للاستعمار إشرافه على القناة بطريقة أو بأخرى .

ورغم ذلك ، رغم تراجعهم ومحاولتهم إقناع الرأى العام العالمى الثائر على هذه المظاهرات العسكرية بأنهم يريدون حلا سلميا رغم ذلك كانت البوارج والأساطيل الإستعمارية تتجمع فى البحر الأبيض المتوسط .

ورفضت مصر حضور مؤتمر لندن كما رفضت اليونان وعقد المؤتمر من ٢٢ دولة منهم ١٨ دولة تؤيد الاستعمار وأعلنت مصر فى بداية المؤتمر تكوين جيش التحرير ليدافع عن مصر إلى جوار جيشها النظامى فى حالة تهديد الاستعمار . وارتفع نداء من أعماق الشعب بأنه يجب على كل مصرى أن يتدرب على حمل السلاح وعلى حرب العصابات حتى إذا رجع الاستعمار إلينا أصبح فى مصر ٢٣ مليون مقاتل يقاتلون عن حقهم فى الحياة والحرية .

واستمر عقد المؤتمر أسبوع وسط المؤامرات والدسائس وظهر فيه بوضوح من الذين يقفون مع الحرية والسلام ومن هم أعداء الحرية والسلام وأعداء حقنا فى الحياة والسيادة .

وكانت الهند والاتحاد السوفيتى وسيلان وأندونيسيا هى الدول التى حملت لواء الدفاع عن الحرية بوجه عام وعن حق مصر فى تأميم مرافقها وسيادتها على هذه المرافق . ودعوا إلى مؤتمر أوسع كالذى دعا إليه الرئيس عبد الناصر

من الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينيه والدول التى تمر سفنها فى القناة أو لها مصلحة ليبحث فى تعديل تلك المعاهدة بما يضمن حرية الملاحة .

ورفض الاستعمار هذه الفكرة بالطبع وقدم دالاس مشروعاً وافقت عليه ثمانية عشر دولة واعترف فيه بحق مصر فى التأميم والسيادة ولكنه طالب بوضع لجنة دولية تشرف على حرية الملاحة . فسحب بالشمال ماقدمه باليمين . وأى سيادة تكون لدولة على مرافقها إذا كانت تشرف عليها لجنة دولية . وكان تناقضاً واضحاً كذلك التناقض الذى نراه أمامنا من وجود بوارج وأساطيل استعمارية فى البحر الأبيض ، وتحركات عسكرية فى قواعدهم ، ثم تصريحات بأنهم لايسعون لحل المشكلة بالقوة ... ولكنه الاستعمار الذى يعمل على كسب الوقت بهذا المؤتمر حتى يعد عدته والذى يعمل على إضفاء الشرعية على موقفه عند ما يعلن ومعه ثمانية عشر دولة ... إن مصر هى التى لا ترغب فى السلام بعدم قبولها لجنة دولية للاشراف على القناة لتحمى حرية الملاحة التى أكدها جمال عبد الناصر وصدقها العالم كله عن طريق صحافته التى جاءت إلى مصر ورأت بعينها كيف تسير الملاحة فى القناة ... ولكن للأسف الشديد لم يصدقها الاستعمار ...

الإستعمار الذى يدبر المؤامرات كل يوم عن طريق قنصلياته فى السويس وبورسعيد والتى تتصل بمرشدى السفن لإقناعهم بالتخلى عن عملهم حتى تتعطل الملاحة بالقناة ... ولكن مصر اليقظة أفسدت تدبيرهم وما زالت الملاحة تسير بحرية وانتظام يؤيد ذلك مئات الشهادات التى وقع عليها ربابنة السفن وقباطنتها الذين يمرون بالقناة والتى حملها الصحفيون العالميون من مختلف الدول معهم إلى الرأى العام العالمى ليدرك حقيقة المؤامرة الاستعمارية الدنيئة ...

والآن وقد انتهى مؤتمر لندن بانقسامه إلى معسكرين ... معسكر الحرية وأنصار الشعوب ، ومعسكر أعداء الشعوب ... انتهى بأن أصدر

قراراً بتبليغ مصر عمادار فى المؤتمر عن طريق لجنة خماسية من وزراء خارجية خمس دول وتبليغ مصر أيضاً رأى دالاس الذى وافقت عليه ١٨ دولة والمعروف أن مصر سترفض هذه القرارات وسيصبح أمام كل دولة أن تتخذ طريقها كما تشاء كما قال دالاس ... وهذا معناه الضغط على مصر بطرق مختلفة ، قد يكون ضغطاً اقتصادياً وقد يكون ضغطاً عسكرياً . فما الذى أعددناه لمواجهة هذه الظروف . . . ؟؟

أما الضغط الاقتصادى فلن يفلح لأن تجارتنا واقتصادياتنا حرة وتتعامل مع المعسكر الشرقى بكل دوله ، ورغم ذلك سنعود أنفسنا على الحرمان والتقشف والاستكفاء الذاتى فى حدود إمكانياتنا وسنحرم أنفسنا من الكماليات ، بل ومن بعض الضروريات حتى نشعر الاستعمار بقوتنا واستغنائنا عنه .

أما الضغط العسكرى فهو يعنى الحرب فما الذى أعددناه . ذلك موضوع هذا الفصل من كتابنا .

فلو فكر الإستعمار فى مغامرة انتحارية وجند جنوده وحاول اغتصاب القناة منا بالقوة وأنزل جيوشه لإحتلال بلادنا ليرهب الحركات الوطنية فى هذه المنطقة من العالم فماذا أعددنا له وماذا يجب علينا وكيف نقاومه ونجعل حياته جحيما فى بلادنا .

جيش التحرير

لقد شكل جيش التحرير من الحرس الوطنى والفدائيين وكل من يريد أن ينضم إليه ولكن يجب أن تكون الأمه كلها جيش التحرير يجب أن يكون ال ٢٣ مليون مصرى فى جيش التحرير أى يجب أن يدرب المصريين جميعا على حمل السلاح وعلى تكتيك حرب العصابات . يجب أن يكون عندنا

تجربة ستالينجراد

المام سريع باستعمال الأسلحة الخفيفة . يجب أن يكون كل فرد فى مصر جندى فى المعركة بل قائد ... قائدلنفسه ولبيته يجب أن نتعلم كيف ندافع عن وطننا ثم عن أحيائنا وقرانا ثم عن منازلنا لقد تقدم الألمان فى روسيا حتى وصلوا إلى ستالينجراد وبدخولهم ستالينجراد تحولت الحرب من حرب الميادين إلى حرب الطرقات والشوارع ثم المنازل ثم الحجرات . تحول أهل ستالينجراد جميعا إلى مقاتلين كل شاب وكل شيخ وكل طفل وكل امرأة إلى مقاتل دفاعا عن بيته وفى حرب البيوت والمنازل والشوارع انتصر أهل ستالينجراد على قوات هتلر الجبارة وفشل الإستعمار الألمانى الذى انتصر فى أكبر الجبهات وأعظم الميادين فشل فى حرب البيوت والشوارع التى استعمل فيها كل سلاح من القنابل التى صنعوها محليا مثل زجاجات مولوتوف إلى المسدسات إلى الطوب والحجارة إلى السكاكين . وكلنا نعلم قصة تلك السيدة التى ظلت تدافع عن بيتها مع أولادها وزوجها حتى قتلوا جميعاً واختبأت هى بالمطبخ ومعها سكين صغير خلف الباب حتى دخل أحد جنود الألمان شاهراً سلاحه فطعنته فى صدره وسقط...وسقطت هى برصاصة أطلقها عليها من بندقيته عندما أحس بالطعنة . هذه هى حرب الشوارع . حرب العصابات...بأى سلاح تستطيع أن تكبد العدو خسائر، بقطعة من الحجر تلقى من مكان مرتفع على جندى مسلح يخر قتيلا على الأرض وتجرده من سلاحه ، ولقد ذاق الإستعمار مرارة هـذا النوع من الحروب فى سباستبول وستالينجراد وجبال اليونان ويوغسلافيا وألبانيا وإيطاليا وفى كوريا والهند والصين . وعرف أنه لا يمكن الانتصار على أى شعب فى هذا النوع من الحروب .

تاريخ الشعب المصرى وحرب العصابات

وتاريخ الشعب المصرى حافل بحرب العصابات التى لم تستعمل فيها غير الوسائل البدائية . فعندما دخل الإنجليز مصر عن طريق الإسكندرية عام ١٨٠٧ وتقدمت قواتهم إلى رشيد بلا مقاومة ودخلوها بلا مقاومة ورأوا البيوت مغلقة الأبواب وكذلك الحوانيت . فاطمئنوا إذ لم يجدوا فرداً واحداً فى شوارع المدينة . فأخذوا يسكرون ويعربدون متندرين بجبن أهل المدينة وخوفهم ... وفجأة انقض عليهم أهل رشيد من النوافذ والأبواب بالعصى والسكاكين . بالطوب والحجارة وقتلوهم بعد أن جردوهم من سلاحهم حتى اضطر بقية الأحياء إلى الفرار من رشيد إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية عادت الجيوش إلى بلادها على نفس السفن التى أحضرتهم . لبطولة الشعب المصرى ممثلا فى فلاحى رشيد . كل هذا حدث قبل أن تتحرك جيوش الحكومة الرسمية فى ذلك الوقت . لقد كان للشعب المصرى مواقف بطولة تدل على ذكاء نادر وتصرف سليم تحتاجه حرب العصابات .

لقد كان المصريون يجمعون الحلل والطشوت والأوانى النحاسية فى عهد الحملة الفرنسية ويصهرونها فى النار ويصنعوا منها مدافع كمدافع نابليون .

لقد كان المصريون يحفرون الخنادق ويقيمون المتاريس بأيديهم فى سنة ١٩١٩ ليعوقوا تقدم القوات البريطانية فى شوارع القاهرة ولقد كان الثوار يضعون المنشورات داخل أكياس البريد لتوزع على جميع البلاد داخل مصر .

وكان الثوار يقطعون السكك الحديدية وأسلاك البرق كما كانوا يحرقون عربات السكك الحديدية التى تحمل المؤن والذخائر للانجليز .

وفى ١٩٥١ فى بداية معركة القنال وقبل أن تخوضها كتائب منظمة كان

التاريخ يسجل بطولة الشعب المصرى فى حوادث بسيطة تدل على شجاعة المصرى وذكائه وحسن تصرفه .

من منا لايذكر قصة نبيل منصور الذى كان يحرق معسكرات بور سعيد بقطع من القطن ملفوفة على هيئة كرة يسكب عليها بعض البترول ويشعلها بعود كبريت ويلقيها على إحدى خيام الإنجليز فتحرقها بمن فيها حتى قتله يوما أحد الحراس من جنود الاستعمار . وهو يقوم بواجبه الوطنى .

وقصة ذلك الطالب الصغير الذى وضع قلم الرصاص فى ظهر أحد جنود الإمبراطورية العظيمة ... فى أحد شوارع الإسماعيلية وقال الق بسلاحك ، فذعر الجندي المدجج بالسلاح الكثير ... فألقى به على الأرض ثم رفع يديه طالباً الأمان فقهقه الغلام الصغير بينما زميل له يلتقط السلاح من على الأرض .

إن تاريخ شعبنا العظيم ملىء بقصص البطولة والشجاعة فى حرب العصابات مما لايحتاج إلى بيان أو توضيح .

معلومات نظرية عن حرب العصابات

ونحن نقدم هنا بعض المعلومات النظرية والملاحظات على التكتيك الذى يجب أن يتبع فى حرب العصابات والفرق بين هذه الحرب والحرب التى خضناها . إن الحرب الماضية كانت فى الصحراء أما المقبلة فستكون فى الشوارع والأولى كان فيها العدو معسكرا بعيدا عنا وكنا نحن المهاجمين له فى معاقله . ولكن اليوم الوضع مختلف فهو الذى يهاجمنا (إذا فكر فى الرجوع إلى بلادنا) ونحن نقوم بالدفاع عن أنفسنا ثم بالهجوم عليه فى هجمات خاطفة لنعوق مواصلاته ونحرق مخازنه وتموينه ونسرق أسلحته ونضلله ونقضى على معنوياته ونسرقه ونحطم خططه .

إن الحرب تحتاج المال والسلاح والتدريب والإيمان بالقضية التى يحارب الإنسان من أجلها .

أما عن الإيمان فالشعب المصرى مؤمن بقضيته تمام الإيمان وعلى استعداد أن يقدم أغلى الضحايا من أجل بلاده . وأما عن التدريب فحرب العصابات لاتحتاج إلى تدريب كبير وطويل ، فالمسألة تحتاج تدريب سريع وفى فترة قليلة قد لا تزيد على عشرة أيام يتدرب فيها المكافح على الزحف والقفز والمصارعة اليابانية واستعمال المسدس والسكين والبندقية والرشاشات الخفيفة وكيفية التصرف فى المواقف الحرجة — أما المال فحرب العصابات لاتحتاج إلى مال كثير لأنها حرب الشعب بأسره وهى وسيلته للتحرر . فكل مواطن سيكون بيته مأوى لرجال العصابات وطعامه مؤونة لهم وكل قرش يطلب منه سيدفعه وهو راض لأنها ضريبة الدفاع عن حياته — هذا إذا لم تكن الحكومة هى المشرفة على المعركة أما إذا كانت الحكومة هى التى تقودها كما سيحدث فى بلادنا فهى التى ستتكفل بهذه المسألة ، وكذلك السلاح فحكومتنا ستتولى تسليح الشعب ليقاتل أعداءه .

ولكننا سنفرض جدلا أن الحكومة لن تعطينا السلاح أو أن أسلحتنا قليلة فماذا نفعل . لن نبذل كبير عناء فى البحث عن الطريق .

سلاحنا من أعدائنا

وسأذكر هنا قصتين حدثتا فى حرب العصابات وفرق الزمن بينهما قرن ونصف من الزمان حدثت الأولى فى مصر فى الصعيد .. عندما هاجمت جيوش الفرنسيين مصر فى حملة نابليون وأخذت تطارد المماليك فى الصعيد فعسكرت إحدى هذه القوات على ساحل النيل أمام أحدى قرى مديرية أسيوط .

وفى كل يوم كانت تحس القوة بنقص فى أسلحتها ومعداتها فأمر القائد ديزيه

بتشديد الحراسة على المعسكر حتى يعلموا أسباب النقص فى سلاحهم وفى إحدى الليالى وجد الحراس شبحاً يزحف فى الظلام فأمسكوا به فوجدوه غلام لم يتعد الرابعة عشر من عمره ويحمل على كتفيه خمسة بنادق وكمية كبيرة من الطلقات وأيقظ القائد المعسكر وأخذ يعذب الفتى المصرى ليعترف ولكن لم يعترف على أحد من الذين حرضوه فتركه القائد بعد أن جلدوه وإشار إليها ديزييه فى أحدى محاضراته بعد عودة الحملة إلى فرنسا قائلا لقد قابلت أشجع طفل فى مصر بل أشجع طفل فى العالم .

وهكذا يتبين لنا أن أجدادنا منذ قرن ونصف كانوا يحاربون الفرنسيين بنفس أسلحتهم بعد أن يسرقوها منهم .

أما القصة الأخرى فقد كانت تحدث فى الصين كل يوم إذ كان أعوان ماوتسى تونج يستولون على قطارات بأكملها محملة بالأسلحة والذخائر ذاهبة إلى قوات تشاينج كاى شيك . آلاف الأطنان من الأسلحة استولت عليها قوات الصين الشعبية أو بالأحرى رجال العصابات الذين تحولوا بها إلى جيش نظامى يعتبر من أحدث جيوش العالم نظاما وتدريباً اليوم . وكلنا نعلم كيف كان أهل قرية القرين بجوار التل الكبير يسرقون المصفحات فضلا عن باقى الأسلحة ويخرجون بها من المعسكرات ثم يفكونها ويبيعونها خردة . لذلك يجب أن تكون مخازن أسلحتنا هى مخازن العدو . يجب أن نسرق سلاحه ونجرده منه كلما أستطعنا .

يجب أن نهاجم كل جندى نراه ونجرده من سلاحه بالحيلة أحيانا والقوة أحيانا أخرى .

والآن ماهى الأهداف القريبة لحرب العصابات .

١ — تجريد العدو من سلاحه الذى يمكن الإستيلاء عليه .

٢ — تدمير الأسلحة التي يتعذر الإستيلاء عليها وحرق مخازن تموينهم ومكان قياداتهم .

٣ — منع الطعام من الوصول إليهم بكل طريقة أو توصيله مسمما .

٤ — تحطيم وسائل مواصلاتهم وعزل قواتهم المعسكرة بعضها عن بعض بإتلاف أسلاك التليفون والبرق وأجهزة اللاسلكي .

٥ — إقتناص الجنود والضباط وإشعارهم بالفزع والإرتباك والرعب .

٦ — مطاردة الجواسيس والخونة والعملاء واحباط مناوراتهم وعدم تمكينهم من إنشاء علاقات مستقرة مع المواطنين .

٧ — إشعاره بأن البقاء في بلادنا جحيما لا يطاق .

كيف تتألف فرق المقاومة

حرب العصابات هي حرب الشعب كله وفي مصر ستعمل تحت لواء هو جيش التحرير فيجب أن يقوم في كل حي أو قسم (في المدن) وفي كل قرية أو عزبة (في الريف) لجان كالآتي تسمى لجان المقاومة الشعبية أو التعبئة :

١ — تكون هذه اللجان من أهالي الحي أو القرية من الموظفين والمثقفين والأعيان والمعلمين والطلاب وممثلين للفلاحين والعمال وهيئة التحرير ومسئول من الحكومة سواء المركز أو القسم أو النقطة وكذلك العمد والمشايخ ومشايخ الحارات في المدن والتجار هذه اللجنة الكبيرة تقسم إلى لجان صغيرة .

(ا) لجنة عسكرية تشرف على تدريب أهالي المنطقة وتقسم المحاربين إلى فرق ومجموعات صغيرة .

(ب) لجنة دعاية وخطابة لشرح المعركة للأهالي وبث الوعي في النفوس .

(حـ) لجنة مالية لجمع تبرعات من أهل المنطقة لتنفق على المعركة والإستعداد لها .

(ى) لجنة للاشراف على التموين عند المعركة .

(و) لجنة إتصال تتصل بقيادة الجيش وتتصل من ناحية أخرى بلجان الأحياء الأخرى أو القرى الأخرى لتنسيق العمل .

وعند بداية المعركة تصبح هذه اللجنة قيادة محلية تشرف على كل شيء خاص بمنطقتها وتنظم الحياة فى هذه المنطقة وكذلك مواد التموين .

أما فرق المحاربين فيراعى أن تكون كل فرقة لاتزيد عن عشرة ولا تقل عن خمسة ويراعى فى تقسيمها السن والمواهب (كركوب الخيل وقيادة السيارات والمصارعة والملاكمة والجرى والرماية وتوزع المواهب على الوحدات المختلفة) والانسجام فى التفكير بين أفراد الفريق .

معدات العصابى (رجل العصابات) :

مسدس صغير وسكين وحبل رفيع وعلبة كبريت وهذا بصفة دائمة حتى إذا ما اصطاد فجأة واحداً من جنود الأعداء تمكن من تكتيفه بعد تجريده من السلاح أو قتله مثلا إذا رأى سيارة بطريق الصدفة تمكن من حرقها وكذلك أى مخزن للذخيرة .

أما سلاحه عند المعركة فيزيد على الأشياء السالفة بندقية أو مدفع رشاش وبعض القنابل اليدوية حسب اللزوم .. لزوم المعركة التى سيدخلها كما يجب أن يحتفظ ببعض الطعام الخفيف كسندوتش خفيف مثلا أو بعض قطع الشيكولاتة أو البسكوت .

كيف تتكون فرق حرب العصابات :

يتكون فريق كل منطقة من الأجزاء الآتية (والفريق يتبع لجنة المنطقة العسكرية) :

١ — القيادة : وهى عبارة عن مجلس أو أركان حرب به قائد وستة آخرون ويحسن أن يكون بينهم .

ا) مهندس ميكانيكى للاستعانة بخبرته فى المسائل المتعلقة بالكبارى والماكينات والمصفحات والدبابات وطريقة نسفها .

ب) كيمائى يستعان به فى الاشراف على صنع القنابل والمتفجرات .

جـ) ضابط للاستعانة به فى وضع الخطط العسكرية .

د) طبيب للاستعانة به فى إجراء الاسعافات السريعة للجرحى سواء من رجال العصابات أو أسرى الأعداء .

٢ — العيون : الذين يقومون بدور التجسس لمصلحة الوطن فيتغلغلون فى صفوف الأعداء ليراقبوا أعمالهم وتحركاتهم ويقدموا تقارير مستمرة للقيادة .

٣ — الفدائيون : الذين يقومون بالتنفيذ فى العمليات الحربية وينقسمون إلى :

ا) قناصة : لاصطياد الفرائس من الأعداء وتجريدهم من سلاحهم ويجب أن يكون سلاحهم (مسدسات وخناجر)

ب) مدمرون : يجيدون كل أنواع التخريب والنسف والحرق والإتلاف ويجب أن يمتازوا بسرعة الحركة (وسلاحهم الديناميت والمتفجرات).

جـ) مهاجمين : بشرط أن يكونوا أقوياء المظهر ويحملون أسلحة

متوسطة كالرشاشات والقنابل اليدوية .

هكذا يجب أن تكون كل كتيبة أو فرقة من جيش التحرير ويربطها بالقوات الأخرى وبالقيادة ضابط اتصال ويكون نظامهم جميعاً هرمى .

نظام تدريب المقاتلين :

يجب أن يتدرب كل رجل من رجال العصابات أو جيش التحرير على هذه الأمور التى تفيده فى المعركة .

١ — الجرى السريع وخفة الحركة وسرعة الهرب .

٢ — تسلق مواسير المياه إذا كانت الحرب فى المدن لأن الأبواب دائماً تعزز بالحراسة .

٣ — القفز من الأسطح والنوافذ حتى تستطيع أن تسرع بالفرار إذا داهم العدو المنزل الذى تقطنه أو تختبىء فيه أو تدار منه المعركة .

٤ — الزحف على البطن .

٥ — مبادىء الملاكمة والمصارعة اليابانية فإنها تفيد فى مباغتة أى جندى وتجريده من السلاح .

٦ — احتمال الجوع والعطش وحبس التنفس . فذلك يفيد أثناء المعارك

٧ — الطعن بالخنجر والضرب والعصى .

٨ — الرماية وأصابة الهدف .

٩ — وضع القنابل المختلفة ومواد الإشتعال إذا استحال وجود قنابل .

١٠ — قيادة السيارات والموتوسيكلات .

١١ — قوة الذاكرة وعدم حمل أى مذكرات حتى إذا ضبط أو أسر لا يفيد الأعداء .

وهذه نصائح للفدائيين :

١ — لا تبالغ فى أهمية انتصار تحصل عليه .

٢ — احذر أن تترك سلاحك فى المعركة حتى عند النوم .

٣ — لا تضيع وقتك فى عمل لاتستطيع القيام به .

٤ — لاتباهى بعمل قبل أن تقوم به .

٥ — بادر بالإختفاء إذا شعرت بالأعداء حتى لا تمكنهم منك .

٦ — احفظ جميع الأماكن القريبة منك والتى تستطيع الإحتماء أو الإختفاء بها حتى لا ترتبك فى المعركة إذا حوصرت .

٧ — عند تدبير خطة الهجوم دبر خطة الانسحاب وقدر النجاح والفشل دائما .

٨ — إذا وقعت فى الأسر فاعلم أن الصمت سوف ينقذ حياتك ويحرر وطنك والإعتراف لن يفيدك بل يعجل بحياتك .

٩ — لاتهمل أى جرح تصب به كى لا تحدث مضاعفات تعوقك عن العمل والحركة .

١٠ — لاتأسر جندى من أعدائك إلا إذا كانت ظروفك تسمح بنقله .

١١ — لاتأخذ معلومات أسيرك قضية مسلم بها فقد يتعمد تضليلك .

وأعلم أن حرب العصابات تعتمد على الذكاء قبل كل شىء .

رأى ماوتسى تونج قائد أكبر معركة اعتمدت على حرب العصابات :

يجب أن تلتزم حرب العصابات قواعد ثلاثة :

١ — إذا استقر العدو فى مكان ناوشته العصابات بمغامراتها المتعددة من نقص إلى نسف إلى حرق وإتلاف وخطف أسلحة حتى يحس إنه فى خطر .

٢ — إذا فكر العدو فى شن هجوم على العصابات لكى ينشد الإستقرار فى مكانه وجب على المناضلين الاختفاء والهرب فليس فى الإلتحام عندئذ أى مصلحة .

٣ — إذا أراد العدو أن ينسحب بعيداً وجب على العصابات أن تشن عليه هجوما عنيفا عند تقهقره وأنسحابه لأنه يكون فى أضعف حالاته المادية والمعنوية .

خدع حربية :

للخدع الحربية أثر كبير فى إضعاف معنويات العدو وتكبيده أكبر الخسائر .

أقام الثوار أثناء ثورة ١٩١٩ طابية مزيفة على سطح أحد المساكن بحى طولون ووضعوا فوقها شىء أشبه بماسورة مدفع فذعر الإنجليز وأجلوا هجومهم حتى يستعينوا بإمدادات ضخمة وفى هذه الفترة كان الاجتماع السرى لقادة الحركة قد انتهى بعد أن خرج الانجليز . وقصة الدبابات الخشبية المزيفة التى وضعها الإنجليز وفزع منها الألمان وفروا من أمامها ثم طوردوا بعد ذلك وصادهم أعداؤهم فى الحرب الأخيرة تبين لنا قيمة الخدعة أثناء المعركة وأثرها فى نفس العدو .

حرب الدعاية :

كذلك يجب ألا ننسى حرب الدعاية من إذاعة ومنشورات وإشاعات فقد سلمت أجزاء كبيرة من جيوش روسيا القيصرية إلى لينين بعد حرب المنشورات التى كانت تلق عليهم وتحدثهم عن الحرب التى لامصلحة لهم فيها بل المصلحة للرجعية فانضمت قوات كبيرة من الجيش إلى الثوار وكذلك كان للاذاعة دور كبير فى معارك التحرير ولا ننسى دور صوت العرب فى شد أزر المكافحين فى شمال أفريقيا وإلقاء الرعب والفزع بين صفوف الاستعمار الذى اشتكى منه طويلا وقدم مئات الإحتجاجات لمصر .

الخاتمة :

ولسنا ندعى أننا قد وفينا الموضوع حقه ولكنها كلمة صغيرة لظروف طبع الكتاب ودار السلام تقدم كلمتها عن حرب العصابات إلى قائد جيش التحرير السيد كمال الدين حسين وإلى السيد أبو الفضل الجيزاوى قائد جيش التحرير بالجيزة الذى ساهم فى معركة القنال الماضية بالمال والسلاح .

وأخيرا هذه كلمتنا فى حرب العصابات ونظمها ونرجو أن نكون قد قمنا بدور صغير فى المعركة القائمة الآن ضد الاستعمار فى شرقنا العربى والتى تكاد تتأجج الآن فى مصر بسبب موقف الغرب من قضية تأميم القناة ونحب أن نقول أن الشكل الذى اتخذته معركة القنال الماضية هو حرب العصابات ولم تكن مقاومة سرية . لأن حرب العصابات تكون غالبا حرب ظاهرة تسندها الجماهير الشعبية وتكون عملياتها مواجهة ويرى كل من الطرفين الآخر فى أغلب المعارك .

أما المقاومة السرية فتقوم على القتال السرى وقوامها فرق من الفدائيين تستند إلى تنظيم جماهيرى سرى وتنحصر عملياتهم فى اقتناص جنود الأعداء ونسف منشآتهم سرا وجنود المقاومة السرية لايعرف أشخاصهم أوأماكنهم . إنما هى عمليات مفاجأة . وذلك لأن إمكانياتهم أقل بكثير من إمكانيات جنود حرب العصابات .

ونتائج المقاومة السرية تنحصر فى مجرد إزعاج وخلق متاعب للأعداء أما معارك حرب العصابات فهى دائما تتسع وتأخذ شكل أكثر تنظيما وتنتهى دائما بالنصر وطرد الغزاة وهذا ماحدث فى الصين ويوغسلافيا واليونان وغيرها من الدول وكذلك يحدث الآن فى الجزائر .

أما نحن فى مصر فستأخذ حركتنا شكل حرب العصابات ولو أنها فى أحيان أخرى قليلة قد تأخذ شكل المقاومة السرية .

ولكننى متأكدين من أننا سنصل إلى النصر بفضل قوة شعبنا وإيمانه وصلابته ووطنية حكومتنا ، وموقف رئيسها العظيم من الاستعمار .

إن الشعب المصرى وشعوب الشرق الأوسط فى أشد الشوق إلى لقاء الإستعمار فى معركة حاسمة فهل يقبل النزال . . ! !

كتب تحت الطبع

- ديوان الحرية والسلام
  لشاعر الشعب صلاح الصاوى
- تجار الحروب (برباره ميجور) لبرناردشو
  ترجمة : مصطفى كمال
- هوشى منه — محرر الهند الصينية
- فاطمى — شهيد تأميم البترول
- من بتهوفن إلى سيد درويش
- ترجمة الحزب الشيوعى الروسى
- العراق الحزين
- المشكلة الدستورية فى مصر

كتب تحت الطبع لدار السلام بالاسكندرية

- كتب تحت الطبع لدار السلام بالاسكندرية
- المساعدات الأمريكية بقلم سعد عبد المتعال
- مشاهدات فى الصين الشعبية لعادل أمين

سعد زغلول فؤاد



▣ ولد عام ١٩٢٤ فى إحدى قرى بنى سويف مع أول دستور مصرى وأطلق عليه والده اسم الزعيم الذى يحبه.

▣ كان كثير الشجار مع زملائه بالمدرسة الإبتدائية وفى مدرسة بنى سويف الثانوية إختاره الطلبة زعيما لهم لحبه للمغامرة .

▣ فى عام ٤٦ قاد مظاهرات الجامعة ضد الاستعمار والرجعية مع غيره من الوطنيين .

▣ فى عام ٤٧ ألف أكثر من جمعية سرية لقتال الإنجليز فى القاهرة وجعل حياتهم جحيما حتى جلوا عنها .

▣ قبض عليه فى قضية ٦ مايو فى منتصف ٤٧ واعترف بأنه كان يهاجم معسكرات الإنجليز ونواديهم ولكنه استنكر قنبلة سينما مترو لوجود النساء والأطفال .

▣ خرج من السجن فى عام ١٩٥٠ بعد ثلاث سنوات ليحمل القلم ويساهم فى تحطيم الملك السابق ونظامه وكانت الجمهور المصرى وروز اليوسف والإشتراكية هى مجاله الصحفى .

▣ فى عام ٥١ ألغيت المعاهدة فألف كتيبه خالد ابن الوليد وكتيبه الأعسر وحمل السلاح فى القنال .

▣ إعتقلته حكومة الهلالى مع بقية الفدائيين ثم أخرجته الثورة ليحمل السلاح مرة أخرى وكان أبرز أعماله هو اختطاف الشاويش البريطانى ريجدن من أرض القنال .

▣ دخل جميع السجون والمعتقلات فى العشر سنوات الأخيرة .

▣ دخل مع الاستعمار فى أكثر من معركة ويستعد الآن للمعركة المقبلة والأخيرة مع زملائه الأحرار .

الثمن ١٠ ص

المطبعة العالمية